

حُسْنُ التَّصَرُّفِ لِشَرْحِ التَّعَرُّفِ

لعلاء الدين أبى الحسن على بن إسماعيل القونوى الشافعى

٧٢٩ هـ

تحقيق وتعليق ودراسة

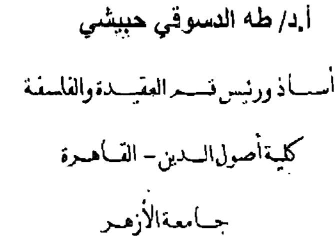
أ.د/ طه الدسوقى حبيشى

الجزء الرابع

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٣٨ هـ - ديسمبر ٢٠١٦ م





أ.د/ طه الدسوقي حبيشي

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين - القاهرة

جامعة الأزهر

حسن التصرف لشرح التعرف

لأبي الحسن علي القنوي الشافعي

تحقيق وتعليق ودراسة

أ.د/ طه الدسوقي حبيشي

الجزء الرابع

الباب الستُّون

في حَقائق المَعرِفَة

وقال بعضهم: المعرفة إذا وردت على السر ضاق السر عن حملها، كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها ".

قال ابن الفرغاني: من عرف الرسم تجبر، ومن عرف الوسم تحير، ومن عرف السبق تعطل، ومن عرف الحق تمكن، ومن عرف المُتَوَلِّي تذلل ".

معناه: من شاهد نفسه قائما بوظائف الحق أعجب، ومن شاهد ما سبق له من الله تحير؛ لأنه لا يدري ما علم الحق فيه، وبماذا جرى القلم به؟ ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر تعطل عن الطلب، ومن عرف الله بالقدرة عليه والكفاية له تمكن فلا يضطرب عند المخوفات ولا عند الحاجات، ومن عرف أن الله متولي أموره تذلل له في أحكامه وأقضيته.

وقال بعض الكبار: إذا عرَّفه الحَقُّ إياه أوقف المعرفة حيث لا يشهد محبة، ولا خوفا ولا رجاء، ولا فقرًا ولا غنى، لأنها دون الغايات، والحق وراء النهايات ". معناه: أنه لا يشهد هذه الأحوال؛ لأنها أوصافه، وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك.

أنشدونا لبعض الكبار:

راعيتني بالحِفَاظ حتى ... حُميتُ عن مَرْتَع وَحِيِّ
فأنت عند الخصام عذري ... وفي ظَمَأي فأنت رِيِّي
إذا امتطى العارف المعلى ... سِرًا إلى مَنْظَرٍ عَلِيِّ
وغاص في أبْحُرٍ غزار ... تفيض بالخاطر الوَحِيِّ
فَضَّ ختام الغُيُوب عما ... يُحيي فؤاد الشَّجِي الوَلِيِّ

من حار في دهشة التلاقي أبصرته ميتاً كحيٍّ

يعني: من حيرته دهشة ما يبدو له من الله (من شاهد تعظيم الله وإجلاله) أبصرته حيا كميت يفنى عن رؤية ما منه ولا يجد له متقدما ولا متأخرا.

قال الشارح

ش : أي: في الأشياء الي تتحقق المعرفة بها، أو فيما تكون المعرفة معه على أتم أحوالها، وأعلى درجاتها حتى كأن غيره ليس بحقيقة للمعرفة (كما مر في شرح حقائق الإيمان).

قال الله – تعالى– : "وما قدروا الله حق قدره" [1] ، جاء في تفسيره: وما عرفوا الله حق معرفته.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: "إن دَعَامة البيت: أساسه، ودَعامة الدين: المعرفة بالله، واليقين، والعقل القامع.

قالت: فقلت: بأبي وأمي، ما العقل القامع ؟ قال: الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله " [2] .

قال القشيري : المعرفة على لسان العلماء هي: العلم، فكل معرفة علم، وكل عالم بالله : عارف، وكل عارف: عالم.

وعند هؤلاء القوم المعرفة: صفة مَنْ عرف الحق – سبحانه– بأسمائه، وصفاته، ثم صدق الله – تعالى– في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الردية، وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب عكوفه، فحظى من الله بجميل إقباله، وصدق الله في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يُصيغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيًا، ومن آفات نفسه بريئًا، ومن المساكنات، والملاحظات نقيًا، ودام في السرّ مع

---

(١) الأنعام : ٩١ ، جزء آية ، الزمر : ٦٧ ، جزء آية.

(٢) حديث مرفوع ، إسناده متصل إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، "الرسالة القشيرية" رقم الحديث : ٧٤ ، وله شواهد في : "المطالب العالية ب زوائد المسانيد الثمانية" : لابن حجر العسقلاني ، إلى: ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، برقم ٢٨٥١ ، وإلى : سعد بن مالك رضي الله عنه برقم : ٢٨٥٩.

الله مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثًا من قبل الحق بتعريف أسراره في ما يجريه من تصاريف أقداره، يسمى عند ذلك : عارفًا، وتسمى حالته : معرفة.

وإطلاق المعرفة على هذا الذي قاله، يشبه إطلاق الإيمان على أصل التصديق مع فروعه.

قال: وفي الجملة، فبمقدار أجنبيته عن نفسه تَحصُل معرفته بربه.

وقيل: العالم يُقتدى به، والعارف يُهتدى به.

وقيل: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال بعضهم: لا يوصف بالمعرفة إلا مَن توالت على قلبه العلوم بمعلوم واحد، وهو: الحق – سبحانه- فقلّت عنه غفلاته، وظهرت عليه آثاره، وعلاماته

ص: قوله: "المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقة.

فمعرفة الحق: إثبات وحدانيته على ما أبرز من الصفات.

والحقيقة: على أن لا سبيل إليها لامتناع الصمدية، وتحقق الربوبية.

قال الله تعالى: " ولا يحيطون به علمًا " [1]، لأن الصمد هو: الذي لا تُدرك حقائق نعوته، وصفاته.

ش : أراد بمعرفة الحق: القدر الذي يحق ويمكن ثبوته من معرفة الله – تعالى- وذلك بحسب ما دلت أفعاله على صفاته، وصفاته على ذاته، فإن الصنع الحادث يدل على وجود الصانع، وعلى قدرته، وعلى إرادته، وإيقانه: يدل على علمه وحكمته، واتساق التدبير في الكائنات وانتظام أحوال الموجودات: يدل على وحدانيته؛ إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله

---

(1) طه : ١١٠ (جزء آية).

لفسدتا ... إلى غير ذلك من وجوه الدلالات حسبما أبرزه الله – تعالى – للعقول في أفعاله من مُقتضيات الصفات، فمن عرفه كذلك، فمعرفته معرفة حق لا باطل.

وأما معرفة الحقيقة فلا سبيل إليها، لامتناع الصمدية، وتحقق الربوبية من معرفة الحقيقة، وذلك لأن الصمد هو: الذي لا تُدرك حقائق نعوته وصفاته؛ إذ الصمد في اللغة هو: السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، والسّيادة والربوبية يقتضيان التسلط على الغير، وينفيان تسلط الغير على الموصوف بهما، والإحاطة بحقيقة نعوت الشيء وصفاته نوع تسلط عليه.

والصَمْد – بسكون الميم – : المكان المرتفع الغليظ.

والمُصمدُ : لغةٌ في المُصْمَت: وهو الذي لا جوف له.

ومعنى الارتفاع والقوة أيضًا مناسب للامتناع عن الإدراك والإحاطة.

فقوله: "وتحقق الربوبية" : معطوف على الصمدية لا على الامتناع.

فيتلخص مما ذكرناه أن الذي انتهت إليه معرفة العارفين من صفاته هو: ما أبرزه لهم في أفعاله. لا حقائق الصفات على ما هي عليه، فكيف بحقيقة الذات ؟ ! .

وقد فرق بين النعوت والصفات، بحمل الصفات على صفات الذات، والنعوت على صفات الأفعال. (قاله بعض الشارحين لمنازل الهروي).

وقال شارح آخر لها: الصفات والنعوت واحد.

وقد يُفرق بينهما، بأن يقال: الصفة: باعتبار النظر إلى الموصوف، والنعت: باعتبار النظر إلى الناعت، فمأخذ الصفة: هو الموصوف، ومأخذ النعت: هو الناعت، فإضافة النعت إلى الفاعل يعني: فيكون بمعنى وصف الواصف، وهو معنى قائم به، بخلاف صفة الموصوف.

والهروي جعل المعرفة كغيرها على ثلاث درجات، قال:" والخلق فيها ثلاث فرق:

الدرجة الأولى: معرفة الصفات والنعوت، وقد وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدها في الصفة بتبصير النور القائم في السّر، وطيب حياة العقل لزرع الفكر، وحياة

القلب: بحسن النظر بين التعظيم، وحسن الاعتبار. وهي معرفة العامة التي لا تنعقد شرائط اليقين إلا بها"[١]. أي: وردت أسامي الصفات والنعوت في الكتاب والسنة الثابتين بالرسالة، كالحيّ، والعالم، والقادر .... وغير ذلك من صفاتِ الذات، وكالخالق، والرازق في المرزوق .... ونحو ذلك.

وإذا اعتبرت الموجودات وجدتها منسوبة إلى الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

ومعنى قوله("بتبصير النور القائم في السرّ" : أن النور الإلهي المودع في سرّ الإنسان هو الذي يُبصّره بشواهد صفات الحق – تعالى– ، وطيب حياة العقل هو: بصفاء الإدراك، وحُسن الاهتداء إلى الحق) [٢]. والمُثمِر لذلك هو: زرع الفكر. (ولا يخفى وجه الاستعارة في هذا الكلام).

وطيب حياة القلب هو: بُحسن النظر في الموجودات واقعًا بين تعظيم الموجِد الحق، وبين حسن الاعتبار، بحيث لا يثبت له ما لا يليق بجلاله – تعالى– ، ولا يستدل بما لا يصح دليلاً .

وقوله: "وهي معرفة العامة" : أراد به عامة أهل الطرق، أو علماء الرسوم والعباد، وكل مَن هو دون مقام المحبة التي هي الفصل بين العامة، والخاصة.

ثم ذكر الهروي أقسام هذه الدرجة وما بعدها، فلينظر في كلامه[٣].

(١) منازل السائرين للهراوي شرح القاشاني جـ٢ ص٥٦٦(مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع-دار الحوراء للطباعة والنشر والتوزيع)

(٢) المنازل بتصرف ص٥٦٦

(٣) السابق ص ٥٦٧ وما بعدها الى صـ ٥٧٣

وقول المصنف "على أن لا سبيل إليها" يجوز أن يكون معناه: ومعرفة الحقيقة مبينة على معرفة: أن لا سبيل إلى معرفتها، فإن معرفتك بالعجز عن إدراكها معرفة ما لها. كما روى عن الصديق ﷺ : العجز عن درك الإدراك إدراك.

فإذا عرفت وجوده – تعالى – فهذا معرفة حق.

وإذا عرفت أنه لا كيفية، ولا ماهية هناك، فهذا معرفة حقيقة.

وإذا عرفت أنه عالم بعلم فهذا معرفة حق، وإذا عجزت عن إدراك علم واحد قديم متعلق بمعلومات غير متناهية كلياتها، وجزئياتها على سبيل التفصيل، فهذا معرفة حقيقة، وهكذا القدرة، والإرادة، وسائر الصفات.

ص:قوله: "قال بعض الكبراء: المعرفة: إحضار السر بصنوف الفكر في مُراعاةَ مواجيد الأذكار على حسب توالي أعلام الكشوف.

قال المصنف معناه: أن يشاهد السّر من عظمة الله، وتعظيم حقه وإجلال قدره ما تعجز عنه العبارة " .

ش :أي: غاية ما في وُسع الإنسان أن يُحضر سِرّه بوجوه من الفكر في حال مراعاته لما يجده مّن فتوح المكاشفة الحاصلة عن الأذكار الإلهية، وهي: علوم يقينية على حسب توالي أعلام الكشوف، فإنه كلما ازداد فكره ونظره في تلك العلوم مُراعيًا لما يجب مراعاته فيها، ازدادت معرفته ولا حدّ لذلك ينتهي عنده، فيعلم عجزه عن الوصول إلى كنه الحقيقة.

وأمّا ما ذكره المصنف ففيه إشارة إلى معرفة الحق، وهي مشاهدة السر لعظمة الله وتعظيم حقه، وإجلال قدره، وإلى معرفة الحقيقة، وهو ما تعجز عنه العبارة.

ص:قوله: "سئل الجنيد عن المعرفة. فقال: هي: تردد السر بين تعظيم الحق عن الإحاطة وإجلاله عن الدرك".

ش : أي: لابد من تعلق السّر بالقدر الممكن من المعارف الإلهية ليصح إطلاق اسم المعرفة، لكنه مع ذلك لزمه التردد بين تعظيم الحق عن الإحاطة بحقيقته، أو حقيقة صفة من صفاته – كما مرّ– ومن إجلاله عن درك ذلك، ولحوقه فضلاً عن الإحاطة به، ولما

كان الدرك دون الإحاطة وغايته مانعة من اللحوق، وظهر بهذا الذي ذكرناه وجه المناسبة في اقتران التعظيم بالإحاطة، والإجلال بالدرك.

ص:قوله: "فيا لها حيرة لا له حظ من أحدٍ، ولا لأحدٍ منه حظ، وإنما وجود يتـردد فـي العدم لا تتهيأ العبارة عنه، لأن المخلوق مسبوق، والمسبوق غير محيط بالسابق.

معنى: "هو وجود يتردد في العدم" يعني: صاحب الحال يقول: هـو موجـود عيانًـا، وشخصًا وكأنه معدوم صفة، ونعتًا " .

ش :الضمير في قوله: "يا لها" ضمير مبهم يُفسّره بما بعده، والـلام فـي مثلـه أصـلها الاستغاثة، ويراد بمثل هذا الكلام: معنى التعجب مع التعظيم، أي: يـا لهـا حيـرة، وأي حيرة.

وإنما استعظم هذه الحيرة لأنها ناشئة عن كمال العلم، وغاية المعرفـة، ولـذلكي روى طلب مثل هذه الحيرة في ما ورد من الأثر: "ربِّ زدني فيك تحيرا " [١]، فإنه في معنى : "رب زدني علمًا " [٢].

والضمير في قوله: "لا لَه" للّه – تعالى– لدلالة المعرفة عليه .

ومعنى : "انتفاء حظه" : استغناؤه عن العالمين . وقد كان قبل خلقه لهم على مـا هـو عليه الآن، وهو الآن على ما عليه كان.

ومعنى: انتفاء الحظ منه: عدم إدراك أحدٍ من خلقه لحقيقته، ولا لحقيقـة صـفة مـن صفاته (على ما مر).

وأما قوله: "وإذا هو وجود ... إلى آخره" : فالظاهر أنه يشير به إلى وجـود الحـق – سبحانه– على ما فيه من نوع بشاعة من حيث ظاهر اللفظ.

---

(١) هذا الأثر يرفعه البعض إلى رسول الله ﷺ ، كذا أورده صاحب الفتوحات المكية في "الفتوحات" في أكثر من موضع، ولم أقف عليه، فالله تعالى أعلم.

(٢) طه ١١٤ (جزء آية) .

ومعنى : "تردده في العدم" : أن كل ما يثبت لله – تعالى- لابد من نفي الكيفية، والنقيصة، وما لا يليق بجلاله عنه، فإنك تقول: موجود لا كسائر الموجودات، وذات لا كسائر الذوات، وواحد لا في عدد، وغني لا بمدد .... إلى غير ذلك من السلوب التي تكتنف الصفات الثبوتية على المخلوق، ويتعذر التعبير عن حقيقة الأمر في ذلك؛ إذ المخلوق مسبوق، ومتناهٍ، والمسبوق والمتناهي لا يحيط بالسابق الذي لا يتناهى.

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفه المحيط ما يفنى بما لا ينفد.

وأما تفسير المصنف فيحتمل وجهين :

أحدهما: أن صاحب الحال يقول – في حق الباري – تعالى- : هو موجود عيانًا، وشخصًا؛ لأني أشاهده في كل شيء، لكني عاجز عن صفته، ونعته، فكأنه معدوم صفة ونعتًا، وفيه ما لا يخفى من بشاعة العبارة، وإطلاق الشخص في حق الله – تعالى- فيه توسع أيضًا.

وقد ورد في الخبر: "لا شخص أغير من الله – تعالى- "[1]، فعلى هذا الوجه يكون في في قوله: "يقول" : ضمير لصاحب الحال، ويكون قوله: "هو موجود عيانًا " : الضمير فيه لله – تعالى- .

والوجه الثاني: أن يكون ذلك صفة صاحب الحال.

فيكون في قوله: "يعني" ، و"يقول" : ضمير لمن فسّر المصنف كلامه.

وقوله: "هو" : يكون ضميرًا لصاحب الحال، أي: صاحب الحال موجود عيانًا وشخصًا مع الخلق من حيث الظاهر، لكنه من حيث الباطن معدوم بينهم.

كما قيل: الصوفي: كائن بائن، لأن سرّه مشغول بمشاهدة الحق، فلا يرى إلا الله، ولا يسمع إلا من الله، ولا يخاطب إلا الله، لاستغراقه، وفنائه فيه .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عني المغيرة بن شعبة ١٤٩٩.

ومن ذلك قال أبو يزيد: أنا منذ أربعين سنة أكلمُ الله – تعالى– والناسُ يعتقدون أني أكلمهم.

ص:قوله: "وعن الجنيد أيضًا قال : المعرفة: هي شهود الخواطر بعواقب المصير، وأن لا يتصرف العارف بشرف، ولا تقصير".

ش :أي: المعرفة هي: أن تشهد الخواطر بعواقب مصير الأشياء، وتعلم أن مبدأها، ومعادها، ومنتهاها هو الله – تعالى– وإلى الله المصير، "وأن إلى ربك المنتهى"[١]، وأن لا يتصرف في قوتي علمِهِ وعملِه بسرف، ولا تقصير، بل يكون فيهما وسطًا بين طرفي الإفراط والتفريط فهو العدالة (على ما تقدم تقرير ذلك).

وبياني أن لكلّي من القوة العلمية، وشعبتي قوة العمل، وهما: الشهوة والغضب وسطا وطرفين، وأن الكمال في الاعتدال، وأن كِلا طرفي قصد الأمور ذميم، لا سيما فيما يتعلق بالعلوم الإلهية، والمعارف الربانية، وما يرجع من ذلك إلى الذات، والصفات، والأفعال.

فمن السّرف ما يعتقدهُ الحشوية من إثبات ما لا يليق بجلال الله – تعالى– .

والتقصير : نفي المعتزلة، والفلاسفة الصفات التي أثبتها الله – تعالى– لنفسه، واقتضاها قضايا العقول.

وأما السرف والتقصير في فروع الديانات فبالتعدي لحدود الله – تعالى–، وبالتخلف والوقوف دونها، ويظهر ذلك في المأمورات والمنهيات.

وأما المصنف فقد شرح قول الجنيد بقوله:

ص: قوله: "ومعناه: أن لا يشهد حاله، وأن يشهد سابق علم الحق فيه، وأن مصيره إلى ما سبق له منه، ويكون مصرفًا في الخدمة والتقصير".

---

(١) النجم ٤٢.

ش :أي: لا ينظر فيما يصدر عنه، ويجري عليه من الأفعال، والأحوال إلى حال نفسه، بمعنى: أن نثبت لنفسه الاستقلال بها، وأنه هو المنشئ، والمخترع لها، بل ينظر إلى سابق علمه لله – تعالى– في جميع الأشياء، وأنه خالقها، وهو المصرف للعبد في جميع أحواله خدمة كانت، أو تقصيرًا، وأن الجميع بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، "الله خالق كل شيء" (١) "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله " (٢) ، وأن مصيره في جميع ذلك إلى سابق علم الله - تعالى– وقضائه.

وحمل المصنف قول الجنيد : "وأن لا يتصرف العارف ... إلى آخره على سلب التصرف عنه، وإثباته لله – تعالى– وهو محتمل لذلك، ولسلب السف والتقصير.

ص: **قوله: "قال بعضهم: المعرفة إذا وردت على السّر ضاق السر عن حملها، كالشمس يَمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها " .**

ش يريد بذلك عجز الأسرار عن معرفة الجبار، لأن حجابه الأنوار، كما ورد في الحديث: "أن حجابه النور" (٣).

والأنوار تبهر الأسرار عن إدراك ما وراءها، كما أن شعاع الشمس يمنع الأبصار عن إدراك يكُنه جوهرها، ولا يخفى أن المراد بالأنوار المذكورة، وبحَجْبها ما يناسب الأسرار دون الأبصار.

ص: **قوله: "قال ابن الفرغاني : مَن عرف الرسمَ تجبر، ومَن عرف الوسم تحيّر، ومَن عرف السّبق تعطل، ومن عرف الحق تمكن، ومن عرف التولي تمسكن.**

قال المصنف في تفسير معناه: مَن شاهد نفسه قائمًا بوظائف الحق أُعجب، ومن شاهد ما سبقي له من الله تحيّر، لأنه لا يدري ما علِم والحق فيه، وبماذا جرى القلم به،

---

(١) الزمر ٦٢ (جزء آية).

(٢) الإنسان ٣٠ ، التكوير ٢٩ (جزء آية).

(٣) سبقت الإشارة إليه.

ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم، ولا يتأخر تعطل عن الطلب، ومن عرف الله بالقدرة عليه، والكفاية له تمكّن، فلا يضطرب عند المخوفات، ولا عند الحاجات، ومَن عَرَف أن الله مُتوليّ أموره تذلل له في أحكامه، وأقضيته " .

ش : أي: من نظر إلى قيامه بوظائف العبادات، وسائر الأحوال والمقامات، واعتقد أنها من جهة نفسه، كما هو رسم الخلق أُعجب بنفسه، وصار جبارًا، وخيف عليه من زوال الإيمان، كما اتفق لإبليس اللعين؛ حيث منعه الكبر، والإعجاب من امتثال أمر رب العالمين.

قال بعضهم: ينبغي للعبد أن يرى نفسه في المعاصي، كما فعل آدم عليه السلام حيث قال: "ربنا ظلمنا أنفسنا" (١)، وأن لا يرى نفسه في الطاعات.

وقول المصنف: "أعجب" المشهور في الاستعمال أن يقال: أعجب بنفسه، ويمكن أن يُوجّه الاقتصار على قوله: "أعجب" بأن أصله: أعجبتْه نفسُه، فلما بُني الفعل للمفعول قيل: أُعجِبَ ، كما يقال: هو مُعجَبٌ .

ثم فسر الوسم: بتوسم العبدَ أمر السابقة، وتفرسه أن الخاتمة تابعة لها، فإنه إذا علم ذلك، ولم يعلم ما الذي سبق له في علم الله – تعالى- ، وبماذا جرى له القلم، حصلت له الحيرة، والخوف من سوء الخاتمة.

والعياذ بالله – تعالى–

و"العلم" في قول المصنف: ما علم الحق فيه، بمعنى: المعلوم.

وفسر معنى السبق: بمعرفة ما قسم له من الرزق فيما سبق، وأنه لا يتقدم، ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص فإن ذلك يوجب تعطله عن الطلب.

---

(١) الأعراف ٢٣ (جزء آية).

وفسر معرفة الحق: بمعرفة قدرته عليه، وكفايته له، فإنه إذا عرف ذلك تمكن، ولم يضطرب عند الخوف والحاجة، لعلمه بقدرة التولّي بمعرفة أن الله – تعالى– متولي أموره كلها، فإنه إذا عرف أنه ليس بيده، ولا بيد غيره من الأمر شيء، وأن الله – تعالى– مالك الأمر كله، وأن ناصيته بيده، ماضٍ فيه حكمه، لا مانع لما أعطاه، ولا معطي لما منعه، سلّم الأمر لمن له الأمر، ولمن الخلق في قبضته، وتذلل خاضعًا منقادًا لأحكامه، وأقضيته.

ص: قوله: "قال بعض الكبار: إذا عرّفه الحقُّ إيّاه أوقفه المعرَّف حيث لا يشهد محبةً، ولا خوفًا، ولا رجاءً، ولا فقرًا، ولا غنىً؛ لأنها دون الغايات، والحق وراء النهايات.

معناه: أنه لا يشهد هذه الأحوال؛ لأنها أوصافه، وأوصافه أقصر من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك.

ش أي: إذا عرَّف اللهُ – تعالى– نفسَه بعض أوليائه أوقفه حيث لا يشهد شيئًا من الأحوال والمقامات؛ لأن ما يحصُل منها يمكن أن يكون فوقه شيء آخر، فلا تزال الأحوال، والمقامات الحاصلة دون غاياتها الممكنة، والحق وراء النهايات؛ إذ كلُّ مُتناهٍ فهو دونه، لاستحالة التناهي عليه، فإذا أوقفَ اللهُ العارفَ الذي عرّفه نفسَه مع عرّفه منه فقد أوقفه حيث لا يبلغ شيء من ذلك (لما أشار إليه المصنف)، فإن المحب وإن بلغ أقصى غايات المحبة فإنما محبته على قدر طاقته، لا على قدر ما يستحقه المحبوب، وكذلك الخائف، والراجي، وكل صاحب عمل وحال ومقام جميع ما يفرض لهم من ذلك قاصر ناقص بالنسبة إلى كمال الحق (سبحانه).

ص: "أنشدونا لبعض الكبار :

راعيتني بالحِفاظ حتّى [illegible][1]

---

(١) لم أقف عليه عند غير المصنف

ش : المحافظة: المراقبة، ويقال: أنه ذو "حفاظ" ، وذو محافظة إذا كانت له "أنفــة" أي: راعيتني بمحافظتك فضلاً منك عليّ، حتى حميتني عن المضارّ، والمهالك. ومن أعظمهــا ما يبعدني عنك.

وقوله: "وبي" أصله: "وبيء" : بالهمز من الوباء، يقال: وبئت الأرض توبــأ وبــاءة، فهي وبية وبيئة على فعلة وفعلية.

ويجوز فيه: وبئة ووبيّ: بالإدغام، كما جاء في خطيئة وخطية.

ص: قوله: "فأنت عند الخصام عذري .. وفي ظماءي فأنت ربي

ش : أي عند خصومه خصماي يوم القيامة، أو عند حساب أعمالي، وظهور تقصــيري، وإخلالي، فأنت يا رب مُقيم عذري عند الخصام، وقابل عذري لدى الإحجام. ولا يخفــي وجه المجاز في هذا الكلام.

وكذا في قوله: "وفي ظماءي فأنت ربي" : والمعروف في لفظ الظماء هو: القصر على زنة فعل، وقد مدّه الناظم في هذا البيت للضرورة، والمشهور امتناع مثله. والذي يقتضــيه المعنى: أن يكون الظرف المقدّم على المصدر الذي هو: الري معمولاً له. وهو ممتنع في العربية إلا بضربٍ من التأويل.

ص: قــوله : "إذا امتطى العارف المُعَلّــى .. سرًا إلى منظــر عليّ

وغاص في أبحُــــرٍ غزارٍ .. تفيض بالخاطــر الوَحيّ

فض ختام الغيــوب عما .. يحيي فؤاد الشجى الوليّ

ش : امتطى الفرس ونحوه، أي: ركب مطاه، وهو ظهره.

وقوله: "سِرًا " : هو مفعول قوله: "امتطى" ، شبه السر بمركوب ركــب ظهــره، ودل على هذا التشبيه قوله: "امتطى" ، فهو من الاستعارة بطريق الكناية، أي: إذا سار العارف بسره إلى منظر عليّ، وهو عالَم الغيب، ووصف العارف المذكور بالمُعَلّى، لعلوّ همته، أو قدره عند الله – تعالى- .

والوحي السّريع، ووُصف الخاطر به لسرعة خطوره.

وأشار بغوص العارف للأبحر الغزار إلى نظره في ملكوت السموات، والأرض، ببصيرته النافذة، واستخراجه لجواهر العلوم، والمعارف من بحار الحقائق الإلهية والكونية، فإنها بحار غزار يغوص فيها العارف السيار لا تنفد عجائبها، ولا تنتهي غرائبها، وهي تفيض على القلوب والأسرار المستعدة لقبول الفيض منها بخواطر سريعة شريفة من غرائب العلوم، وعجائب الفهوم.

والفض: الكسر بالتفرقة، ومنه فض ختم الكتاب، والختام: الطين الذي يختم به، وقول الناظم: "فضَّ خِتَامَ الغيوب" : هو جواب قوله: "إذا امتطى" أي: إذا فعل العارف (ما مرّ ذكره) ظفر بمكنون العلم، وفض ختام الغيوب عن معارف إلهية تحيي قلوب الأولياء، فإن القلوب تحيا بعلم الغيوب، قال الله – تعالى– : "أو مَن كان ميتًا فأحييناه" الانعام ١٢٢ أي: ضالاً بالجهل فهديناه بالعلم.

"**والشجي**" : الحزين، يقال: ويل للشجي من الخَليّ. قال المبرد: ياء الخَلي مشدودة، وياء الشجي مخففة، وقد شُدد في الشعر، وأنشد

نام الخليون عن ليل الشجيينا .. والحزن في الدنيا من صفات الصالحين

لأنها سجن المؤمن ، وجنة الكافر.

ص: قوله: "مَن حار في دهشة التلاقي .. أبصرته ميتا كحي".

قال المصنف في معنى هذا البيت مَن حَيّرته دهشة ما، يبدو له مَن شاهد تعظيم الله وإجلاله أبصرته حيًّا، كميّت يفنى عن رؤية ما منه، ولا يجد له متقدمًا، ولا متأخرًا " .

ش أي: ظاهر كلام الناظم في هذا البيت: أن ما ذكره صفة نقص وليس كذلك، بل هو إشارة إلى حال المشاهدة، ومقام القرب والوصول إلى الله – تعالى– فإن من وصل سرُّه إلى المقام المذكور، واعترته الدهشة لجلال الحضرة الإلهية، وكمال عظمتها اتصف بالفناء عما سوى الله – تعالى– حتى لا يرى ما هو منه، فضلاً عن غيره، وصار في مقام

الخيزة، والغيبة، ولا يجدل له موضع بقدم ؛ إذ ليس وراء الله مرمى، ولا موضع تأخر؛ إذ النكوص على الأعقاب خذلان.

ويجوز أن يكون لفظا المتقدم والمتأخر مصدرين، كما جاز أن يكونا مكانين.

وأشار المصنف بقوله: "حيا كميت" إلى وقوع القلب في قول الناظم:

"ميتا كحي" ، إذ المعنى على أن الفاني عن رؤية الأشياء حيّ كميت، لا أنه ميت كحي، والقلب كثير في الكلام لا سيما في الشعر.

ومنهم مَن عدّ قوله تعالى: "ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعُصبة" القصص ٧٦' من القلب، وقال المعنى: لتنوءُ العصبة بها، أي: تنهض بها من قولهم: ناء ينوء نوءًا إذا نهض بجهد ومشقة، ولا ضرورة إلى ذلك، لجواز كونه من قولهم: "ناء به الجمل" إذا أثقله، ويقال المرأة تنوء بها عجزيتها: أي تثقلها، ومن القلب أيضا .

قولهم: "أدخلت القلنسوه في رأسي، والخف في رجلي، وعرضت الناقة على الحوض ..... إلى غير ذلك من الأمثلة، والشواهد الكثيرة، ولعلماء البيان في قبوله ورده مذاهب، ثالثها: أنه لهن اعتباراً لطيفًا كما في قول الشاعر :

وَفهمه معبرة أرجاؤه ٠٠كان لون أرضه سماؤه

قبل وإلا يرد ، ولا يبعد، جعل قول الناظم ميتًا كي من ذلك، بأن تقدر قصد المبالغة في وصفه بصفات الأموات لسقوط التصرفات عنه، والإدراكات، فعكس التشبيه كذلك.

كما قيل نظيره في قول الشاعر : "كان لون أرضه سماؤه".

* * *

الباب الحادي والستون

في التوحيد

قال المصنف

أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث، وتنزيه القديم عن إدراك المُحْدَثِ له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلة عن الربوبية، وإجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه، وتنزيهه عن التمييز والتأمل، وتبرئته عن القياس.

قال محمد بن موسى الواسطي: جملة التوحيد: أن كل ما يتسع به اللسان، أو يشير إليه البيان (من تعظيم أو تجريد أو تفريد): فهو معلول، والحقيقة وراء ذلك". معناه: أن كل ذلك من أوصافك، وصفاتك محدثة معلولة مثلك، وحقيقة الحق هو وصفه له.

وقال بعض الكبراء: التوحيد: إفرادك متوحدا، وهو: أن لا يشهدك الحق إياك ".

قال فارس: لا يصح التوحيد ما بقيت عليك علقة من التجريد، والموحد بالقول لا يشهد السر منفردا به، والموحد بالحال غائب بحاله عن الأقوال، ورؤية الحق حال لا يشهده إلا كل ما له، ولا سبيل إلى توحيده بلا قال ولا حال ".

وقال بعضهم: التوحيد: هو الخروج عن جميعك بشرط استيفاء ما عليك، وأن لا يعود عليك ما يقطعك عنه "، معناه: تبذل مجهود في أداء حق الله، ثم تتبرأ من رؤية أداء حقه، ويستوفيك التوحيد عن أوصافك فلا يعود عليك منها شيء، فإنه قاطع لك عنه.

قال الشبلي: لا يتحقق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سره وحْشَةً لظهور الحق عليه ".

وقال بعضهم: المُوَحِّد: من حَال اللهُ بينه وبين الدارين جميعاً؛ لأن الحقَّ يحمى حريمه؛ قال ﷻ: {نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة}، فلا نردكم إلى معنى سوانا

في الدنيا والآخرة.

وعلامة الموحد: أن لا يجري عليه ذكر إخطار ما لا حقيقة له عند الحق، فالشواهد عن سره مصروفة، والأعواض عن قلبه مطرودة، فلا شاهد يشهده، ولا عوض يعبده، ولا سر يطالعه، ولا بر يلاحظه؛ هو في حقه عن حقه محجوب، وفي حظه عن حظه مسلوب، فلا نصيب له في نصيب، وهو مأسور في أوفر النصيب، والحق أوفر نصيب؛ من فاته الحق فليس له شيء وإن ملك الكون، ومن وجد الحق فله كل شيء وإن لم يملك ذرة ".

معناه: هو قائم بحقه، محجوب عن رؤية قيامه بحقه، وهو مسلوب عن حظوظه، وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها، ونصيبه من الحق، وجود الحق، وهو فيه مأسور وليس له متقدم ولا متأخر

وأنشدونا لبعضهم:

مواجيد حق أوجد الحق كلها وإن عجزت عنها فهوم الأكابر

* * *

قال الشارح

ص: قوله: أركان التوحيد سبعة: "إفراد القدم عن الحدث، وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له، وترك التساوي بين النعوت، وإزالة العلة عن الربوبية، وإجلال الحقّ عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه، وتنزيهه عن التمييز والتأمل، وتبرئته عن القياس".

ش أما "إفراد القدم عن الحدث" : فمعناه: نفي كل ما يستلزم الحدوث عن القديم ﷻ ، وتنزيهه عن إدراك المحدث له" معناه واضح، وكيف يدرك ما لا تُحد، ولا يُكيف هذا، إن أريد بالإدراك معنى العلم والمعرفة، وإن أريد به معنى اللحوق والوصول، فكذلك.

وأما "ترك التساوي بين النعوت" فيحتّمل معنيين:

أحدهما: أن لا يعتقد أن نعوت الله تعالى متساوية، متحدة في المعنى، كما تقوله المعتزلة، وسائر نفاة الصفات.

وثانيهما : أن لا يسوي بين صفاته تعالى، وصفات المحدثات، فلا يعتقد أن علمه كعلمنا، أو قدرته كقدرتنا .... إلى غير ذلك من الصفات.

"وإزالة العلة عن الربوبية" أيضًا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن لا يفعل شيئًا لغرض؛ إذ لا علة لصفة، لما يلزم يمن الاستكمال على ما تقدم.

وثانيهما: أنه لا علة له _ تعالى الله عن ذلك_ إذ كل معلول يمكن عدمه نظرًا إلى ذاته.

وأما "إجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه" أي: تغييره، فلاستحالة التغيير في ذاته، وصفاته الحقيقية، فلا يتجدد في ذاته الرضي بطاعة العبد، ولا السخط بمعصيته؛ لامتناع كونه تعالى محلاً للحوادث.

وأما "تنزيهه تعالى عن التمييز والتأمل" معناه: أن علمه محيط بكل موجود، ومعدوم، وبصفات كل منهما على التفصيل والتقدير، وهو غنى عن التأمل في الأشياء، وتميز بعضها عن بعض؛ لأن ذلك من صفات من تخفي عليه الأشياء، أو يشتبه عليه شيء

بشيء، ويجوز أن يحمل التمييز على تفاوت الاشياء بالنسبة الى قدرته وعظمته ونحو ذلك، وتبقى التأمل منسوبًا إلى العلم، فيندفع توهم التكرار في لفظ المصنف؛ إذ يكون التمييز حينئذ في غير العلم، والتأمل في العلم.

وأما "تنزيهه عن القياس" فيحتمل معنيين:

أحدهما: أنه كما لا يدرك حقيقة – على ما مرّ– لا يدرك مقايسه، أي لا يقاس في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله بغيره، لأن القياس تمثيل، ولا تماثل، فلا قياس.

وثانيهما: أنه لا يحتاج في علمه إلى القياس، ولا إلى غيره من وجوه الاستدلال، لاستحالته في العلم القديم.

ص: قوله: قال محمد بن موسى الواسطيُّ: "جملة التوحيد أن كل ما يتسع به اللسان، أو يشير إليه البيان – من تعظيم أو تجريد أو تفريد– فهو معلولٌ، والحقيقة وراء ذلك".

معناه: "أن كل ذلك من أوصافك، وصفاتك محدثةٌ معلولةٌ مثلك، وحقيقة الحقِّ هو وصفه له".

ش : يريد أن ما يتسع به لسانك هو: ألفاظك، وما يشير إليه بيانك هو: تعقلاتك، وهذه كلها صفاتك، فهي محدثة مثلك، وكل محدثي مغلول، بمعنى: كونه أثرًا لمؤثر، وكذلك بمتعلقات التعقلات، وهي المعلومات معلولات أيضًا، بمعنى كونها ناقصة غير لائقة بجلال الحق ﷻ ؛ إذ كل ما يخطر بالبال، أو يمر في الوهم والخيال فالله بخلاف ذلك، وأجل منه وأعلى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"[١].

وفي قول المصنف: "وحقيقة الحق هو وصفه له" حذف مضاف تقديره: وحقيقة صفة الحق وهو ما وصف به نفسه على حسب ما علمه من نفسه؛ إذ ليست حقيقته تعالى هي عين وصفه، لأن وصفه كلامه، وليس الكلام عين الذات، ولا غير الذات، ويجوز أن

---

(١) الشورى ١١.

يكون المضاف محذوفًا من قوله: هو وصفه له، أي: وحقيقة الحق هو موصوف وصفه له، ولولا الجار والمجرور الذي هو قوله: له، لكان الأحسن تقدير الوصف بمعنى الموصوف.

ص: قوله: وقال بعض الكبراء: "التوحيد: إفرادك متوحدًا، وهو أن لا يشهدك الحقُ إياك".

ش : أي: التوحيد الحقيقي هو: أن تفرد الحق حال كونك متوحدًا من كل شيء سواه، وذلك بأن يفنيك الحق عما عداه، حتى لا يُشهدك نفسك فضلاً عن غيرك، لأنك في حال توحيدك للحق، لو شهدت نفسك لكنت مثبتًا لا موحدًا، وذلك لإثباتك أمرين: ربك، ونفسك، فلا توحيد على الحقيقة إلا عند انتفاء الكثرة بالكلية، ولا يتصور انتفاؤها بالكلية إلا في توحيد الله تعالى نفسه، ثم بعد ذلك توحيد الملائكة لقربها من الوحدة، وقلة أحكام الكثرة فيهم، ثم بعد ذلك توحيد أولي العزم لقرب توحيدهم من توحيد الملائكة، ولذلك لم يذكر في قوله تعالى: "شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم" [1]غير الثلاثة المذكورة.

ص: قوله: قال فارس: "لا يصح التوحيد ما بقيت عليك عُلقةُ من التجريد، والموحد بالقول لا يشهد السر منفردًا به، والموحد بالحال غائبٌ بحاله عن الأقوال، ورؤية الحق حالٌ لا يشهده إلا كل ما له، ولا سبيل إلى توحيده بلا قال؛ ولا حال.".

ش : أي: ما بقيت بقية من التجريد لم يتصف بها بعد، فلستَ من أهل التوحيد الحقيقي، وذلك بأن يكون لك تعلق بشيء من الكونين.

فالموحد حقيقة هو: الموحد المتجرد عن كل شيء سوى الحق ﷻ، حتى عن نفسه، بمعنى: الفناء المطلق – على ما تقدم ذكره– فعلى هذا من وحد بقوله: لا يكون موحدًا حقيقيًا؛ إذ لا يشهد سره بالحق منفردًا به، لكونه مع القول– والموحد بحاله غائب بحاله

(١) آل عمران ١٨.

عن القال؛ إذ القول وصف، والحال حضور، فلا يجتمعان. ومع هذا فإن رأى حاله فليس بموحد على الحقيقة، ولا يصح له رؤية الحق أيضًا، لأن رؤية الحق حال، لا يشهد ذلك الحال إلا كل ما للحق، وهذا قد شهده حاله، فلا رؤية، ولا توحيد على الحقيقة.

وإذا كان كل من توحيدي القال والحال بهذه المثابة غالبًا، فلا توحيد حقيقة بالنسبة إلى عموم الخلق؛ إذ توحيد بلا قال، ولا حال، وكل ما يعتقدونه توحيدًا بالقال، أو الحال فليس بتوحيد لبقاء علقةٍ من التجريد، وهو الالتفات إلى القال، أو الحال، فإذا انتفت العلائق بالكلية، وممحض التجريد، حصلت حقيقة التوحيد، ولا يخفى ما في هذا الكلام من التعقيد.

والله تعالى أعلم.

ص: قوله: "وقال بعضهم: "التوحيد: هو الخروج عن جميعك بشرط استيفاء ما عليك، وأن لا يعود عليك ما يقطعك عنه".

معناه: "تبذل مجهودك في أداء حق الله، ثم تتبرأ في رؤية أداء حقه، ويستوفيك التوحيد عن أوصافك، فلا يعود عليك منها شيء، فإنه قاطعٌ لك عنه".

ش : معنى خروجك عن جميعك: "أن لا ترى لنفسك حركة، ولا سكونًا، ولا حالاً من الأحوال، كائنًا ما كان، إلا من الله، وبالله، وأن تفنى عن جميع ذلك، وتبقى مع الله تعالى؛ وذلك بشرط أن تستوفى ما لله عليك من الحقوق، والتكاليف، فتأتي به على التمام، والكمال، وتبذل المجهود في ذلك، مع البراءة من رؤية ما يكون منك من الطاعات حتى يكون عملك عمل الصديقين، ويكون خوفك خوف الوجلين، قال الله تعالى: "والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون" (١).

ولا يكون بالعكس من ذلك كالكثرة المغرورين.

ومعنى: "استيفاء التوحيد لك عن أوصافك": انتفاء المخالفات عنك، وعدم الالتفات إلى الموافقات، فإن ذلك قاطع لك عن الله تعالى، وكذلك السكون إلى غير الله تعالى كائنًا ما

(١) المؤمنون ٦٠.

كان، فإن محبة غيره مثلاً، تقطعك عن محبته، وخوف غيره، يقطعك عن خوفه، والطمع وغيره، يقطعك عن رجائه، والوثوق بغيره، يقطعك عن التوكل عليه، والأنس مع غيره، يقطعك عن الأنس به .... إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول تعداد آحادها.

ص: قوله: "قال الشبليُّ: "لا يتحقق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سره وحشة لظهور الحق عليه".

ش : أي: لا يغني عن الشعور بكل ما سوى الحق لظهور الحق، واستيلاء صفاته عليه، بحيث لو فرض شعوره بسر نفسه، لاستوحش منه وحشة شديدة، فضلاً عن الشعور بغيره، لأشعار شعوره بسره، بأنه غير مستوفي للحق سبحانه، وأنسه في الاستيفاء، والفناء، فكذلك يستوحش من خلافه.

ص: قوله: وقال بعضهم: "الموحد من حال الله بينه وبين الدارين جميعًا؛ لأن الحق يحمي حريمه، قال ﷻ: "نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة"[1]، فلا نردكم إلى معنى سوانا في الدنيا والآخرة".

ش : يريد أن حق الموحد أن يمتلئ قلبه بالله تعالى، وذكره، ومحبته، بحيث لا يسمع غيره، فيكون الله تعالى قد حال بين قلبه وبين الدنيا والآخرة، حيث لم يدع له سعة لغيره، وحماه عن تسلط الغير عليه؛ لأنه حريمه المختص به، فهو يحميه كما يحمي كل صاحب حريم حريمه.

وفي الآية إشارة لأرباب الخصوص إلى ما ذكره، لأنه الولاية بمعنى المحبة، تستلزم الغيرة، والغيور شأنه أن يحول بين ما يغار عليه، وبين غيره.

ص: قوله: "وعلامة الموحد أن لا يجري عليه ذكر إخطار ما لا حقيقة له عند الحق".

---

(١) فصلت ٣١.

ش : خطر الشيء: قدره ومنزلته، وجمعه إخطار، دخل في قوله "ما لا حقيقة لـه عنـد الحق" جميع الكائنات سوى الحق ﷻ ، لقول من صدقه رسول الله ﷺ "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" (١).

ص: قوله: "فالشواهد عن سره مصروفة، والأعواض عن قلبه مطرودة، فـلا شـاهد يشهده، ولا عوض يعبده، ولا سر يُطالعه، ولا بر يُلاحظه".

ش : كأنه يشير بالشواهد، والله أعلم إلى الدنيا وما فيها، فإنها حاضرة، يعني إذا تمكـن التوحيد، وما يلزمه من الأحوال السنية، والمعارف الإلهية، في قلب الموحـد، زهـد فـي الدنيا، بكونها شاغلة له عما هو بصدده، فتصير شواهد الدنيا، وهي خواطرها، عن سـره مصروفة، ومع ذلك فلا يكون له التفات أيضًا إلى طلب عوض عما انصرف عنـه مـن الدنيا في الآخرة؛ لفوزه بما هو أعظم من ذلك، وهـو التوحيـد، ومـا يلزمـه، فيصـير الأعواض، وهي أجور الآخرة، ولذاتها عن قلبه مطرودة، وحينئذ فلا شاهد يشهده، أي: لا يحضر قلبه شيء من أحوال الدنيا، كالحاضرة لغيره، وهو حب الدنيا غائب عنه، والغائب عن غيره، وهو صرف التوحيد، وحقيقته حاضرة لديه، ولا عوض يعبده، أي يجعله عبدا لنفسه، من قوله تعالى: "أن عبدت بني إسرائيل"(٢)، وفيه تعريض بأن من عبـد الله طلبـا للأعواض، فكأنما عبد الأعواض، ولم يعبد الله، بل جعله وسيلة، وواسطة إلى نيلهـا، ولا يخفى ما في ذلك من البعد عن التحقيق، والخروج عن الطريق.

ومعنى قوله: "ولا سر يطالعه" : أنه لقوة استيفاء التوحيد له، وكمال اسـتغراقه فيـه، مشغول عن مطالعة السر الذي هو محل التوحيد، لأن السر إنما شـرف، وعظـم قـدره، وارتفع شأنه، بسبب ما فيه، لا لنفسه؛ إذ لو فرض خلوه عنه، لم يكن له في نفسـه مـن الشرف ما يكون له عند كونه مشغولاً بما هو محله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الشعراء ٢٢.

ومعنى قوله: "ولا بر يلاحظه" : أن المستغرق في حقائق التوحيد، محفوف بنعم الله تعالى، وبره، ومع هذا فهو مشغول بالمنعم عن ملاحظة النعمة، والبر لما مر حيلولة الحق بينه، وبين غيره، بسبب امتلائه به.

ص: قوله: "هو في حقه محجوب، وفي حظه عن حظه مسلوب؛ فلا نصيب له في نصيب، وهو مأسورٌ في أوفر النصيب، [والحق أوفر نصيب؛ من فاته الحق فليس له شيء وإن مَلَكَ الكون، ومن وجد الحق فله كل شيء وإن لم يملك ذرة] [1].

معناد: "هو قائم بحقه، محجوب عن رؤية قيامه بحقه، وهو مسلوب عن حظوظه، وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها، ونصيبه من الحق وجود الحق، وهو فيه مأسور، وليس له متقدم ولا متأخر".

ش :أي: الموحد العارف كائن في حقه، بمعنى قيامه بحق الله تعالى، وهو مع ذلك محجوب عن رؤية قيامه بحق الله تعالى.

فيجوز أن يكون الضمير في "حقه لله تعالى" ، ويجوز أن يكون "للموحد" ؛ لأن حق الله الذي يقوم به العبد، ويلابسه، يجوز إضافته إليه، لجواز الإضافة بأدنى ملابسة، ويقوي ذلك عود الضمير عليه في قوله: "وفي حظه".

فقوله: "في حقه" في موضع الخبر، ويجوز أن يقدر حالاً، و"محجوب" هو الخبر، وعلى التقدير الأول وهو خبر ثان.

وأما قوله: "وفي حظه عن حظه مسلوب" فقد فسره المصنف: بأنه يرى نفسه كائنة في حظوظها، مع أنه مسلوب عن الحظوظ، لانحصار لذاته في الحقوق، فصارت الحقوق بالنسبة إليه كالحظوظ بالنسبة إلى غيره.

فعلى هذا يكون كونه في حظوظه امراً مقدرًا باعتبار رؤيته نفسه قائمة بها مع كونها مسلوبة عنها.

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من بعض النسخ

ويجوز أن يكون معناه: أنه في حظوظه حقيقة بمعنى: أن الله تعالى خوله بجميع مراداته، وخطوطه من غير طلب منه لها، ولا اشتغال بها عن حقوق الله تعالى، لما في الحديث: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[1]، فهو في حظوظه متلبس بها حقيقة، وهو مسلوب عن طلبها، والالتفات إليها.

قوله: "فلا نصيب له في نصيب، وهو مأسور في أوفر نصيب"، فمعناه: أنه مسلوب الاختيار، والإرادة، فلاحظ، ولا رغبة له في شيء مما يرغب الناس فيه من الحظوظ، والأشياء، وإنما نصيبه من الحق وجدانه، والقرب منه، ومعرفته، فهو نصيبه لا غير، وهو أوفر النصيب، لأن من وجد الحق فقد وجد كل شيء، وإن لم يملك شيئًا، ومن فاته الحق فليس له شيء، وإن ملك الكون، وهو مأسور في هذا النصيب الأوفر مقيد به، ليس له تقدم علي، ولا تأخر عنه، أو مكان تقدم، ولا مكان تأخر.

ويجوز أن يكون كل من قوله "مأسور" ، وقوله: "في أوفر النصيب" خبرًا مستقلاً. ومعنى كونه: "مأسورًا على هذا" : انتفاء الإرادة والاختيار؛ إذ الأسير لا اختيار له.

ص: قوله: وأنشدونا لبعضهم:

مواجيد حق أوجد الحق كلها وإن عجزت عنها فُهُومُ الأكَابِرِ[2]

ش :

* * *

(١) الحديث في حلة الأولياء ٧/ ٣٦٦ وقال عنه أبو نعيم غريب تفرد به أبو مسلم عن ابن عيينة وقال غيره موضوع.

(٢) الأبيات ذكرها المصنف ولم يعلق عليها الشارح بشيء، اعتمادًا على ظهور معناها أو نسيانًا، وهي من قصيدة للحلاج وهي من شعر الفصحى.

الباب الثاني والستون

في صفة العارف

قال المصنف

سئل الحسن بن علي بن يزدانيار: متى يكون العارف بمشهد الحق؟ قال: إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الإخلاص".

معنى " بدا الشاهد ": يعني شاهد الحق، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك (من بره لك، وإكرامه إياك بمعرفته وتوحيده والإيمان به)، تفنى رؤية ذلك منك رؤية أفعالك وبرك وطاعتك. فترى كثيرَ ما منك مستغرقاً في قليل ما منه، وإن كان ما منه ليس بقليل، وما منك ليس بكثير.

وفناء الشواهد: بسقوط رؤية الخلق عنك، بمعنى: الضر والنفع، والذم والمدح.

وذهاب الحواس: هو معنى قوله {فبي ينطق، وبي يبصر} الحديث.

ومعنى اضمحل الإخلاص: أن لا يراك مخلصا، وما خلص من أفعالك إن خلص ولن يخلص أبدا إذا رأيت صفتك، فإن أوصافك معلولة مثلك.

سئل ذو النون عن نهاية العارف؟ فقال: إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون ". معناه: أن يشاهد اللّٰه وأفعاله، دون شاهده وأفعاله.

قال بعضهم: أعرف الخلق باللّٰه أشدهم تحيرا فيه".

قيل لذي النون: ما أول درجة يرقاها العارف؟ فقال: التحير، ثم الافتقار، ثم الاتصال، ثم التحير".

الحيرة الأولى: في أفعاله به، ونعمه عنده، فلا يرى شكره يوازي نعمه - وهو يعلم أنه مطالب بشكرها، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها -، ولا يرى أفعاله أهلا أن يقابله بها، استحقارا لها، ويراها واجبة عليه لا يجوز له التخلف عنها.

وقيل: قام الشبلي يوما يصلي، فبقي طويلا ثم صلى، فلما انفتل عن

صلاته قال: "يا ويلاه! إن صليت جحدت، وإن لم أصل كفرت". أي: جحدت عظم النعمة، وكمال الفضل؛ حيث قابلت ذلك بفعلي شكرا له مع حقارته. ثم أنشد:

الحَمْـــدُ للهِ على أنَنـــي كضفدع يسكـن في اليَمّ
إن هي فاهت ملأت فمها أو سكتت ماتت من الغم

والحيرة الأخيرة: أن يتحير في متاهات التوحيد، فيضل فهمه، ويخنس عقله في عظم قدرة الله تعالى وهيبته وجلاله، وقد قيل: دون التوحيد متاهات تضل فيها الأفكار".

سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال: هل للعارف وقت؟ قال: لا "، فقال لم؟ قال: لأنّ الوقت فرجة تنفس عن الكربة، والمعرفة أمواج تغط وترفع وتحط فالعارف: وقته أسود مظلم "، ثم قال:

شرط العارف، محو الكل منك إذا بَدَ المُرِيْدُ بلَحْظٍ غير مُطَّلِعِ

قال فارس: العارف، من كان علمه حالة، وكانت حركاته غلبة عليه ".

سئل الجنيد عن العارف؟ فقال: "لون الماء لون الإناء". يعني: أنه يكون في كل حال بما هو أولى، فيختلف أحواله، ولذلك قيل: هو ابن وقته ".

سئل ذو النون عن العارف؟ فقال: "كان هاهنا فذهب". يعني: أنك لا تراه في وقتين بحالة واحدة؛ لأن مصرفه غيره.

وأنشدونا لابن عطاء:

ولو نَطَقَت فِيَّ ألسن الدهر خَبَّرَت بأني في ثوب الصَّبابَة أرْفُل
وما إن لها علم بقدري وموضعي وما ذاك موهوم، لأني أثَقَّلُ

وقال سهل بن عبد الله: أول مقام في المعرفة: أن يعطى العبد يقينا في سره تسكن به جوارحه، وتوكلا في جوارحه يسلم به في دنياه، وحياة في قلبه يفوز بها في عقباه "

قلنا: العارف، هو الذي بذل مجهوده فيما لله، وتحقق معرفته بما من الله، وصح

رجوعه عن الأشياء إلى الله؛ قال الله تعالى: {ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق} ؛ يجوز أن يكون ما عرفوا من الله من بره وإحسانه (بقصده إليهم، وإقباله عليهم، واختصاصه إياهم من بين ذويهم)، كما قال أبي بن كعب حين قال له النبي ﷺ: {إن الله أمرني أن أقرأ عليك} ، فقال: يا رسول الله، أوَذُكِرْتُ هناك؟ قال: {نعم}، فبكى أبي؛ لم ير حالا يقابله بها، ولا شكراً يوازي نعمه، ولا ذكرا كما يستحقه، فانقطع فبكى.

وقال النبي ﷺ لحارثة: {عرفت فالزم}، نسبه إلى المعرفة، وألزمه إياها، ولم يدله على عمل.

سئل ذو النون عن العارف؟ فقال: هو رجل معهم، باين عنهم ".

.قال سهل: أهل المعرفة بالله، كأصحاب الأعراف، يعرفون كلا بسيماهم؛ أقامهم مقاما أشرف بهم على الدارين، وعرفهم الملكين ".

أنشدونا لبعضهم:

يا لهف نفسي على قوم مَضَوا فقَضَوا ... لم أقض منهم وإن طاولتهم وَطري
هُمُ المَخَافِيتُ في كِبْرِ الملـــوك إذا ... أبصَرتَهُم قلت: إضمارٌ بلا صُــوَرِ

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "سئل الحَسَنُ بن علي بن يزدانيار "متى يكون العارف بمشهد الحق. قال: إذا بدا الشاهد، وفنى الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الإخلاص".

قال المصنف : معنى بدا الشاهد يعني: شاهد الحق، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك (من برّه لك، وإكرامه إياك بمعرفته، وتوحيده، والإيمان به) تفنى رؤية ذلك منك رؤية أفعالك، وبرك، وطاعتك فترى كثيرًا ما منك مستغرقًا في قليل ما منه، وإن كان ما منه ليس بقليل،وما منك ليس كثير، وفناء الشواهد: سقوط رؤية الخلق عنك، بمعنى الضر والنفع، والذم والمدح، وذهاب الحواس،هو معنى قوله تعالى: "فبي ينطق وبي يبصر ... الحديث" [1]، ومعنى اضمحل الإخلاص: أن لا يراك مخلصًا، وما خلص من أفعالك _ إن خلص_ ولن يخلص أبدًا إذا رأيت صفتك، فإن أوصافك معلولة مثلك" انتهى.

ش : قول المصنف: "قول السائل متى يكون العارف بمشهد الحق" يجوز أن يريد بالمشهد زمان شهود الحق،أو مكان شهوده على ضربٍ من التوسع، أو نفس شهوده، بمعنى: متى يكون متلبسًا بالشهود.

وقول المجيب: "إذا بدا الشاهد" : أي: ظهر، يجوز أن يحمل الشاهد على ما هو أعظم مما ذكره المصنف؛ لأن الذي ذكره من قبيل تجلي الأفعال، واللفظ صالح لتجلي الذات، والصفات أيضًا، وقد يستنكر التعبير عن الخلق بالشواهد بعد التعبير عن الحق بالشاهد. واعتبارَ البُدُوِّ في الشاهد، والفناء في الشواهد، ويظن أن الكلام فيه تهافت، وتدافع، ولا استنكار في تخصيص ما يشهده العارف، ويغلب عليه بالشاهد، وما يشهده عموم الناس ويغلب عليهم بالشواهد، وكذلك إفرد الأول، وجمع الثاني تنبيهًا على أن الإفراد للأفراد والجمع للعموم.

والباء في قول المصنف: بمعرفته متعلقة بقوله وإكرامه ،ويجوز أن يُقَدَّر تنازُعُ العاملين فيها، ومنها: البِرُّ، والإكرام.

---

(١) الحديث أصله في البخاري بألفاظ مختلفة إلى أبي هريرة جي٨ رقم ٦٥٠٢.

وقوله: تفنى رؤية ذلك...إلى أخره، أي: يغلب عليك رؤية فعل الله تعالى، وما سبق منك إليك بحيث لاترى فعل نفسك فكان رؤية ما منه أفنت رؤية ما منك، فترى جميع طاعاتك لا تقابل نعمة واحدة من نعمه "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" [١].

وقد أحسن المصنف في استدراكه أمر القلة والكثرة على ما ترى وهو كما قال الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل[٢]

وقد قيد المصنف سقوط رؤية الخلق: بمعنى النفع والضر، في تفسيره فناء الشواهد، ويجوز حمله على ما هو أعم من ذلك، ووجه ما أشار إليه المصنف في ذهاب الحواس، أن من استعمل حواسه في موافقة الحق سبحانه وذهب عنه استعمالها في مراد الله، وحظوظه لزوال اختياره، وفنائه، وبقائه على حسب ما يختاره الحق له، فكأنه لا حواس له؛ لأنها صارت لله تعالى وبتصرفه على حسب موافقته وبتصريفه تعالى إياها، معنى "إضمحلال الإخلاص" يجوز أن يكون ما أشار إليه المصنف من عدم رؤيتك للإخلاص وللفعل الذي أخلصت فيه فيكون معنىً قوله: إن لا يراك مخلصًا" : أن لا ترى نفسك مخلصًا، ويجوز الجمع بين ضميري الفاعل والمفعول لشيء واحد في أفعال القلوب، وفي فعلي العدم، والفقدان، وهو من خصائصها.

وقوله: "وما خلص من أفعالك" معطوف على مفعول الرؤية، أي: ولا ترى عن رؤية الصفات وخلاص الإنسان عن رؤية صفات نفسه بعيدة جدًا ووجه توقف الإخلاص على ذلك، أن المخلص الحقيقي عند القوم من لا يرى غير الله تعالى في عمله، فمن رأى نفسه، أو صفة من صفاتها ،أو قصد بعمله تحصيل كمال من كمالاتها لم يكن مخلصًا عندهم.

---

(١) النمل ١٨ جزء آية.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

حكي عن بعضهم، ويقال أنه الإمام الغزالي: أنه قصد بعض المشايخ ليُجلِسَهُ في الخلوة الأربعينية على عادتهم في ذلك، مستأنسين بما روى في الحديث: "من أخلص لله تعالى أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[1]، فَفَعَلَ الشيخُ، ولقنه من الذكر ما رآه مناسبًا لحاله، فلما انتهت أيام الأربعين، وخرج من خلوته لم يجد في قلبه زيادة الحكمة، فجلست في الخلوة طامعًا في ذلك،وطالبًا لهذه المرتبة من الكمال فحرمها لفقدان شرطها، وهو الإخلاص في الأعمال.

ويجوز أن يكون معنى اضمحلال الإخلاص بالنسبة إلى الفاني أنه لا يتصور من الرياء؛ إذ لا يرى أحدًا غير الله حتى يُرائيه، وإذا لم يتصور الرياء لم يتصور الإخلاص إن اعتبر فيهما النسبة إلى الخلق.

ومعنى قوله: "فإن أوصافك معلولة مثلك" أنها ناقصة، كنقصان ذاتك، أو النظر إلى أوصافك علة في العمل، مانعة من الإخلاص، كما أن النظر إلى ذاتك كذلك.

ص: قوله: "سئل ذو النون عن نهاية العارف ؟ فقال: إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون – قال المصنف – : معناه : يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله".

ش : أي: لا يشاهد نفسه، ولا أفعاله، فيكون عند نفسه كان معدوم كما كان قبل أن يوجد ويرى برَّه تعالى، وسابقة إحسانه، إليه قبل وجوده، وقبل صدور أفعاله، ويرى جميع ذلك من الله تعالى؛ إذ ليس له فعل، ولا وجود في الحقيقة، فهو هالك في نفسه، وهذه صفة له لازمة دائمة، وكذلك جميع الممكنات، فإذا عرف الإنسان ذلك وتحقق به فقد انتهى إلى نهاية المعرفة.

ص: قوله: "قال بعضهم أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرًا فيه" .

ش : وقد تقدم شرح معنى هذا الكلام في مواضع من هذا الكتابي وسيأتي شيء منه أيضًا في للفصل الذي بعد هذا الفصل،

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء ، عن أبي أيوب الأنصاري ، ٥ / ١٨٩.

ص: قوله: "قيل لذي النون ما أول درجة يرقاها العارف ؟ قال: التحيُّر، ثم الافتقار، ثم الاتصال ثم التحير - قال المصنف - الحيرة الأولى في أفعاله به، ونعمة عنده، فلا يرى شكره يوازي نعمه - وهو يعلم أنه مطالب بشكرها، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها".

ش : أي: فيتحير في كيفية قيامه بما هو مطالب به من الشكر وقد تقدم ذكر ما روى عن داوود عليه السلام أنه قال في بعض مناجاته ما معناه: إلهي كيف أشكر على نعمتك وتوفيقك للشكر نعمة أخرى منك يجب عليَّ شكرها، فأوحى الله إليه : يا داوود إذا علمت ذلك، فقد شكرتني، وقد نظم هذا المعنى محمود الوراق فقال:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً   عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغي الشكر إلا بفضله وإن   طالت الأيام واتصل العمر

ص: قوله: "ولا يرى أفعاله أهلاً أن يقابله بها استحقارًا لها، ويراها واجبة عليه، لا يجوز التخلف عنها".

ش : هذا وجه آخر في التحير لتردده بين ما أُمر به وبين تركه، فإن فعل فقد قابل الرب العظيم، ونعمه، وفضله العميم بالعمل الحقير اليسير، وذلك يشبه صنيع من يجحد عظم النعمة، وإن ترك تعرض للعقاب الأليم، والضمير في قوله: يقابله لله تعالى، وإطلاق لفظ الأهل على ما لا يعقل فيه نظر، واستشهد المصنف لهذه الحيرة بما رواه عن الشبلي في قوله:

ص: قوله: "وقيل قام الشبلي يومًا يصلي فبقي طويلاً ثم صلى فلما انفتل عن صلاته قال: "يا ويلاه. إن صليت جحدت، وإن لم أصل كفرت"، أي: جحدت عظم النعمة، وكمال الفضل؛ حيث قابلت ذلك بفعلي شكرًا له مع حقارته".

ش : يعني: كأني جاحد لذلك بدليل إقدامي على مقابلته بهذا الفعل الحقير التافه، وإن لم أصل كفرت النعمة ،أو كفرًا مخرجًا عن الإسلام على رأي بعض العلماء الأعلام، ومعنى قوله: فبقي طويلاً فبقي واقفًا زمنًا طويلاً .

ص: قوله: "ثم أنشد بعضهم :

الحمـــد للـــه على أنني كضفدع يسكن في اليـــمّ
إن هي فاهت ملأت فمها أو سكتت ماتت من الغم"(١)

ش قال الجوهري: الضفدع مثال الخنصر يعني بكسر الدال واليم البحر.

والغم بتشديد الميم لغة في الفم مع الضم للفاء وفتحها. قال الجوهري: وأما تشديد الميم فإنها يجوز في الشعر، كما قال: يا ليتها، قد خرجت من فيه قال ابن السكيت: ولو قال من فمّه لجاز.

وقوله: "الحمد على أنني" يحتمل أن يكون معناه أحمد الله تعالى مع أنني على هـذا الحال الضعيف، أو أحمده على هذه الحالة فإنها نعمة، لكونها ناشئة عن كمـال التعظـيم لجناب الحق ،وغاية الاحتقار لفعل نفسه.

ص: قوله: (والحيرة الأخيرة :أن يتحير في متاهات التوحيد، فيضل فهمـه، ويخـنس عقله في عظيم قدرة الله، وهيبته، وجلاله. وقد قيل: دون التوحيد متاهات تضـل فيهـا الأفكار".

ش : المتاهات: مواضع التحير، من قولهم: تاه في الأرض، إذا ذهب متحيـرًا، قـال الله تعالى : "يتهيون في الأرض" (٢) والتيه: المفازة التي يُتاه فيها، ومنه تيه بنـي إسـرائيل. ويقال خنس يخنس (بالضم) أي: تأخر، ومنه الخناس، وضلال الأفكار والأفهـام، وتحيـر العقول، والأوهام في معرفة صفات الرب ﷻ فضلاً عن ذاته المقدسة مما يخفى، ولذلك كثر اختلاف العقلاء في ذلك، وعم الضلال غالب الناظرين بعقـولهم المجـردة، إلا مـن عصمه الله من المهالك، ولم يتكلم المصنف على قول ذي النون:" ثم الافتقار، ثم الاتصـال"

(١) لم أقف عليه في غير كتاب التعرف.

(٢) المائدة ٢٦ جزء آية .

وكان مراده بالافتقار في هذا الموضع: أن العارف إذا تحير في القيام بواجب العبودية وتحقق العجز عنها لم يبق له شيء يتقرب به إلى الله تعالى سوى الافتقار، والاعتراف بالعجز، والاضطرار، فيقبله الحق بفضله، ويجيبه بمقضي وعده بقوله "أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء" [1] . فيحصل له بهذا القبول من الحق، والإقبال سعادة القرب والاتصال.

ص: قوله: "سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال: هل للعارف وقت ؟ قال: لا، فقال الإمام: لم ؟ . قال: لأن الوقت فرجة تنفس عن كربة، والمعرفة أمواج تغط وترفع وتحط، فالعارف وقته أسود مظلم).

ش : الفرجة بفتح الفاء: التقصي والخلاص من الهمّ ، قال الشاعر:

ربما تكره النفوس من الأم   ر له فَرجة كَحَلّ العِقال[2]

والفُرجة بالضم فُرجة الحائط ،وما أشبهه ،يقال: بينهما فُرجة أي: انفراج.

والتنفيس: الترفيه، ومنه نفس الله عنهم كُربته. أي: فرَّجها، ويقال: غطّه في الماء يغطه غطّاً. إذا مقله وغوصه فيه، وأما الوقت: فقد تقدم ما يراد به في اصطلاح القوم ، وكأن المراد به هاهنا ما يسكن إليه السالك، ويجد به راحة لنفسه، وإنما نفي ذلك عن العارف لامتناع سكون العارف إلى غير الله تعالى ؛ إذ السكون إلى غيره إعراض عنه. وعندهم أن من أعرض عن الحق طرفة عين لم يكن من العارفين.

---

(١) النمل ٦٢ جزء آية .

(٢) الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري . دار العلم للملايين ١/ ٣٣٤ ، وفيه أنه لأمية بن أبي الصلت ، وفي تاج العروس قال أمية بن أبي الصلت:

"لا تضيقن في الأمور فقط تك ٠٠ شف غمّاها بغير احتيال.

ثم ذكر بعده ما في الصلب، وهو من الخفيف.

ولما كانت المعرفة كلما ازدادت ازدادت الحيرة جعل العارف كالغريق في بحار الحيرة، تتلاطم به أمواج الجلال والهيبة، وهي أمواج متراكمة متراكبة، كظلمات في بحر لجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض. ومن كانت الأمواج المذكورة تغطه فترفعه تارة، وأخرى تحطه، لا يخفي ما يكون فيه من شدة الأمر عليه، ومن وقع في شدة شديدة يقال: إن الدنيا أظلمت عليه، وأظلم الوقت عليه، وإلى ذلك الإشارة بقوله:" فالعارف وقته أسود مظلم." والله أعلم.

ص:قوله: "ثم قال: شرط العارف: محو الكل منك إذا بدا المريد بلحظ غير مطلع".

ش : يعني أن شرط حصول المعارف الإلهية لك أن تمحو كل شيء منك.

أي: تفنى عن صفاتك، وسائر توجهاتك إلا التوجه الإلهي، كما أن شرط المريد أن يبدأ الإرادة" بلحظ غير مطلع" إلى الأشياء بأن لا يكون له التفات إلى شيء سوى طلب الحق، فالمريد مبتدئ، والعارف منتهٍ ،لأن الأول: طالب والثاني: واصل، ويلزم كلاً منهما عدم الالتفات إلى غير ما هو مشغول به، وإذا كان الالتفات في الصلاة التي هي من عبادات البدن خلسة يختلسها الشيطان من صلاة العبد على ما ورد في الحديث فما ظنك بالالتفات إلى غير الله تعالى في المعرفة، التي هي عبادة القلب، وكذلك الإرادة ؟ .

ص: قوله: "قال فارس: العارف من كان علمه حالة وكانت حركاته غلبة".

ش : أي: لا يكون مقتصرًا على مجرد العلم من غير عمل به ولا تلبس الأحوال التي يعرفها ويصفها لغيره كأكثر المنتمين إلى العلم والمعرفة، فيكون ممن قال الله فيهم: "ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون"[1]. فنفى عنهم العلم لعدم علمهم به، وكذلك من قال فيهم: "مثل الذين حملوا

(١) البقرة ١٠٢ جزء آية.

التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا"[١] إلى غير ذلك، مما يدل على ذكر حال المقصرين على مجرد العلم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من العلماء العاملين، ويتولانا بما يتولى به عباده الصالحين بمنه وكرمه

وهذا الذي قاله فارس مناسب لما سبق نقله عن القشيري في أول باب حقائق المعرفة، حيث جعل التلبس بالأحوال، والمقامات من جملة المعرفة ومعنى قوله: "كانت حركاته غلبة عليه" أن يكون اختيار الله تعالى له غالبًا على اختياره في جميع حركاته وسكناته، بأن يكون مسلوب الاختيار لنفسه (على ما تقدم ذكره غير مرة).

ص: سئل الجنيد عن العارف. فقال: لون الماء لون الإناء، قال المصنف – يعني أن يكون في كل حال بما هو أولى فيختلف أحواله، ولذلك قيل: هو ابن وقته.

ش : يريد أن العارف مع الله تعالى لا تصراف له في نفسه، ولا اختيار، بل يُصَرِّفُهُ الله تعالى بما هو الأولى به، فيكون في كل وقت بحسب ما يقيمه الله تعالى في ذلك الوقت كما أن الماء يُرى في كل إناء، على لون ذلك الإناء، إن كان في إناء أخضر يُرى أخضر، وفي أصفر يُرى أصفر، إلى غير ذلك من الألوان.

وقد روى عن الجنيد أيضًا أنه قال: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة، قال الشيخ محي الدين النواوي رحمهُ الله تعالى في كتابه _الذي شرع في جمعه في الرقائق واخترم قبل إكماله وسماه "بستان العارفين"_ معناه: أن الصادق يدور مع الحق كيف كان، فإذا كان الفضل الشرعي في أمر، عملَ به وإن خالف ما كان عليه وخالف عادته. وإذا عُرِض أهم منه في الشرع ولا يمكن الجمع بينهما انتقل إلى الأفضل ولا يزال هكذا. وربما كان في اليوم الواحد على مائة حال، أو ألف، أو أكثر حسب تمكنه في المعارف، وظهور الدقائق، واللطائف، قال: وأما المرائي

(١) الجمعة ٥ جزء آية.

فليزم حالة واحدة، بحيث لو عرض له مهم يرجحه الشرع عليها في بعض الأحوال لم يأت بهذا المهم، بل يحافظ على حالته، لأنه يراعي بعبادته، وحالته المخلوقين، فيخاف من التغيّر ذهاب محبتهم إياه فيحافظ على دقائقها والصادق يريد بعبادته وجه الله ﷻ، فحيث رجح الشرع حالاً صار إليه ولا يُعرج على المخلوقين.

ص: قوله: "سُئل ذو النون عن العارف. فقال: كان هاهنا فذهب.- قال المصنف-: يعني: أنك لا تراه في وقتين بحالة واحدة ؛لأن مُصَرِّفَهُ غيره".

ش : هذا هو معنى الكلام الذي قبله، وذلك لأن اختياره تبع لاختيار الحق، بل لا اختيار له في نفسه، فهو دائر مع اختيار الحق كيفما دار، ويجوز أن يكون ما قاله ذو النون إشارة إلى غيبة العارف، وذهابه إلى الله تعالى ، كما حُكي عنه أنه بعث إنسانًا من أصحابه إلى أبي يزيد لينقل إليه صفة أبي يزيد فلما جاء الرجل إلى بسطام سأل عن دار أبي يزيد فدخل عليه، فقال له أبو يزيد: ما تريد ؟ قال: أريد أبا يزيد. فقال: من أبو يزيد؟ وأين أبو يزيد؟ فأنا في طلب أبي يزيد، ولما عرف الرجل أنه أبو يزيد، وسمع مقالته هذه خرج من عنده وقال: هذا الرجل مجنون، ورجع إلى ذي النون وأخبره بما رأى؛ وسمع منه، فبكى ذو النون، وقال : أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين إلى الله ﷻ.

ص: قوله: "وأنشدونا لابن عطاء رحمه الله عليه:

ولو نطقت بى السن الدهر خَبَّرَتْ ... بأني في ثوب الصبابة أرفَلُ

وما إن لها علم بقدري وموضعي . . . وما ذاك موهوم لأني أنقَلُ)

ش : الصبابة رقة الشوق وحرارته ويُعَبَّر بها عن العشق والمحبة، يقال: رجلٌ صَبٌّ أي: عاشق مشتاق، وقد صَبَبتَ يا رجل بالكسر ورَفَل في ثيابه يَرفل إذا أطالها، وجرّها متبخترًا، ومقصد الناظم الإشارة إلى علو مرتبته، وتمكنه، وبلوغه الغاية القصوى في المحبة؛ بحيث لو فُرض للدهر ألسنة ناطقة لخبَّت بزهوه وخيلائه، لارتفاع قدره في الصبابة، واعتلائه، ثم إنه نفى أن يكون للدهر ولأهله علم بحاله، وبمقدار محبته، وبموضعه، ومكانته منها، وأكد ذلك بأن الذي قاله ليس بأمر موهوم، بل هو أمر محقق لا شك فيه، وعلله بأنه ينقل من حالٍ إلى حال، ومقام إلى مقام، لما مرّ أن العارف مُصَرَّف

لا يكون في وقتين على حالة واحدة، ومن كان كذلك لم يكن لحاله قرار، ليعرف، ويعين بكونه على حال كذا أوصفه كذا.

ص: قوله: "قال سهل بن عبد الله: أول مقام من المعرفة: أن يعطي العبد يقينًا في سره تسكن به جوارحه، وتوكلاً في جوارحه يسلم به في دنياه وحياة في قلبه يفوز بها في عقباه".

ش: اليقين يراد به العلم القطعي، وقد يطلق على طمأنينة النفس وسكونها عن الحركة في طلب الرزق ونحوه، وهي حالة تنشأ عن العلم بأن الرزق مقسوم، ومضمون، وهو المراد هاهنا.

سئل السري عن اليقين فقال: سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيًا.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: [أنه قال: "لا تُرضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله، ولا تذمن أحدًا على ما لم يؤتك من الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرصُ حريص، ولا يرده عنك كراهة كاره، وإن الله بعدله، وقسطه جعل الروح، والراحة، والفرج في الرضي واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط"][١].

وعن أبي حفص الحداد قال: رآني أبو تراب النخشبي وأنا في البادية جالسٌ على بركة ماء، قد أتى عليّ ستة عشر يومًا لم آكل ولم أشرب، فقال لي: ما جلوسك؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين انتظر ما يغلب فأكون معه.

قال القشيري: يعني: إن غلب العلم شربت، وإن غلب اليقين مررت، فقال: سيكون لك شأن، فإذا أعطى العبد يقينًا في سره سكنت جوارحه ، واستراحت من تعب الطلب؛ لتحققه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، "وأن الأمة لو اجتمعوا على أن

---

(١) البيهقي ، شعب الإيمان، أبي ابن مسعود رقم ي٤، وفي حلية الأولياء ج٤ ص ١٢١.

ينفعوه لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[١].

على ما ورد في الحديث الصحيح .

وكذلك إذا أُعطى توكلاً في جوارحه فاستعملها على شرط التوكل غير متكل على التسبب بها، بل على مسبب الأسباب، سَلِمَ به عن اختلال أمر دينه في دنياه، فإن التوكل محله القلب، والحركة بالجوارح لا تنافي توكل القلب بعد أن يتحقق العبد بتقدير الله تعالى للأشياء كلها، وفراغه من الخلق والخُلق، والرزق والأجل؛ فإن تعسّر عليه شيء فبتقديره، وإن تيسر فبتيسيره ، وإذا أُعطى حيرةَ في قلبهِ ناشئة عن كمال المعرفة. على ما تقدم شرحه غير مرة فاز بها في عقباه، ونال بها رضي مولاه، ولم يطمئن إلى أحدٍ سواه.

ص: قوله: "العارف هو الذي بذل مجهوده فيما لله، وتحقق معرفة بما منّ الله، وصح رجوعه من الأشياء إلى الله".

ش : أي بالغ في الاجتهاد، واستفرغ وسعه في أداء ما لله تعالى عليه من الحقوق، فإن كُلّ من ازدادت معرفته في الباطن ازدادت خدمته في الظاهر، ولاستلزام المعرفة العبادة عُبر عنها بالعبادة في قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[٢]، أي ليعرفوني.

على ما روى عن ابن عباس، وغيره من المفسرين؛ وفسرت المعرفة بما هو من قبيل العبادات للاستلزام المذكور.

ومعنى قوله: "وتحقق معرفة بما من الله": أن يشاهد ما من الله إلى الخلق من النعم التي لا تحصى أقلها قال الله تعالى: "وما بكم من نعمة فمن الله" [٣]، وقال: "وإن تعدوا نعمة الله

---

(١) الترمذي، السنن إلى ابن عباس رقم ٢٥١٦ وقال : حسن صحيح.

(٢) الذاريات ٥٦.

(٣) النحل ٥٣ جزء آية.

لا تحصوها"[١]؛ فإن من المعرفة أن يعرف النعم ويشكر المنعم، ولا يُصيِّر النعم حجابًا له عن رؤية المنعم فيها، بل لا ينظر إلا إليه، وأما صحة الرجوع من الأشياء إلى الله: فإما أن يراد بها الانتقال عن المصنوعات إلى معرفة الصانع، أو الالتجاء إليه في كل الأحوال، والرجوع إليه فيها. إما بالشكر في السراء، أو بالصبر في الضراء.

ص: قوله: "قال الله ﷻ: "ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" الآية[٢].

- قال المصنف -: يجوز أن يكون ما عرفوا من الله من بره وإحسانه بقصده إليهم، وإقباله عليهم، واختصاصه إياهم من بين ذويهم".

ش : قال الزمخشري : فإن قلت: ما معنى قوله: "تفيض من الدمع" قلت معناه: تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء، أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه؛ فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء. وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قُصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء، من قولك: دمعت عينه دمعًا: يعني أن الدمع على هذا التأويل الثاني يكون مصدرًا بمعنى البكاء، وعلى التأويل الأول: هو اسم ما يترشح من العين عند البكاء.

قال: فإن قلت: أي فرق بين "من" و"من" في قوله: "مما عرفوا من الحق".

قلت: الأولى: لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله وسببه.

---

(١) إبراهيم ٣٤ جزء آية.

(٢) المائدة ٨٣ جزء آية.

والثانية: لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، ويحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم، وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن، وأحاطوا بالسنة. انتهى كلام الزمخشري.

والذي ذكره المصنف من معرفة اختصاص الله تعالى إياهم ببره وإحسانه، وإقباله عليهم، وقصده إليهم بذلك هو أيضًا بعض الحق لا كله، ولفظ " ذوي" جمع " ذو" بمعنى صاحب.

فقوله: "من بين ذويهم" معناه: من أصحابهم يعني بهم: أهل الكتاب، وإضافة "ذو" وبابه إلى المضمر قليل؛ لأنها وضعت للتوصل بها إلى جعل الأجناس أوصافًا

وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس ﷺ : أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليروه ويعرفوا حاله، فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا، ورجعوا إلى النجاشي، فآمن ولم يزل مؤمنًا حتى مات، وصلى عليه النبي ﷺ .

قال ابن عطية رحمه الله تعالى: الضمير في " سمعوا" ظاهره العموم، ومعناه: الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق، وقالوا: آمنا، وليس كل النصارى تفعل ذلك.

قال: وصدر الآية في قرب المودة عام فيهم، ولا يتوجه خصوصه بالمؤمنين منهم؛ إذ لا يقال فيهم "ذلك بأن منهم قسسين ورهبانًا"(١).

ص: قوله: "كما قال أبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ : "إن الله أمرني أن أقرأ عليك" ، فقال: يا رسول الله: أوَ ذكرتُ هناك ؟ .

قال: "نعم".

(١) المائدة ٨٢ جزء آية

فبكى أبي – قال المصنف– : لم ير له حالاً يقابله بها، ولا شكرًا يوازي نعمه، ولا ذكرًا كما يستحقه، فانقطع، فبكى (١).

ش : أي لما بشره رسول الله ﷺ بأن الله ذكره، وكان ذكر الله تعالى له من أجل النعم عليه لم يجد عنده حالاً ولا عملاً يليق بجلال الله تعالى ليقابله بذلك، ولا شكرًا يوافي نعمه، ولا ذكرًا منه كما يستحقه الله تعالى يكون سببًا لذكر الله تعالى له فتحقق العجز، والانقطاع عن القيام بشكر تلك النعمة، فبكى لذلك، وهو نوع من الرجوع إلى الله تعالى بالفقر، والاعتراف بالعجز، ويجوز أن يكون بكاءه سرورًا بما خصه الله تعالى به من بين سائر الصحابة ﷺ؛ إذ يحصل البكاء عند شدة السرور.

ويقال أن دمعته تكون باردة، ودمعة الحزن حارة.

ومنه قولهم: قرت عينه تقر: تفيض سخنت.

قال الجوهري: وقال الشاعر:

لعمرك إن قرت بك أعين ۞ لقد سخنت بالبعد عنك عيون(٢).

ص: قوله: " وقال النبي ﷺ لحارثة: "عرفت فالزم – قال المصنف– : نسبه إلى المعرفة وألزمه إياها ولم يدله على عمل " .

ش : أي لم يعين له عملاً يقابل به النعمة التي أنعمها الله عليه لعلمه بعجز حارثة عن ذلك، واقتصر على أمره بلزوم الحال الذي وصفه له.

---

(١) البخاري ، إلى أنس بن مالك رقم ٤٩٦١ ومسلم ٧٩٩.

(٢) في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري وذكر من هذا الشعر ٤ / ٢٢٢ يعني وذكر بعد البيت بيتين.

في أو أو ثم وقف عليك مودتي ۞ مكانك من قلبي عليك مصون

فما أوحش الدنيا إذا كنت نازعًا ۞ وما أحسن الدنيا بحيث تكون

ويروي: أصبت موضعا، _ عرفته _ ، والإصابة تستلزم المعرفة.

ص: قوله: "سئل ذو النون عن العارف فقال: رجل معهم بائن منهم".

ش أي كائن معهم بالظاهر، بائن منهم بالضمائر.

وقوله تعالى لنبيه: "قل إنما أنا بشر مثلكم" [١] ، من حيث إنه كائن .

وقوله: "يوحى إلي"[٢]، من حيث إنه بائن.

وكذا قوله: "لست كأحدكم أبيت عند ربي يطعمني، ويسقيني"[٣].

وقد تقدم هذا المعنى في صفة الصوفي.

ص: قوله: "قال سهل: أهل المعرفة بالله أصحاب الأعراف، يعرفون كلا بسيماهم، أقامهم مقامًا أشرف بهم على الدارين، وعرفهم الملكين".

ش : "أصحاب الأعراف" : هم المذكورون في قوله تعالى: "وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم"[٤] ... الآية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما : - إن الأعراف - : تل بين الجنة والنار.

وعن مجاهد : " حجاب" بين الجنة والنار.

وذكر الزهراوي حديثًا: أن رسول الله ﷺ قال: "إن أُحدًا يحبنا ونحبه، وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحتَبس عليه أقوام يعرفون كلاً بسيماهم، هم إن شاء الله من أهل الجنة"[١].

(١) الكهف ١١٠ جزء آية.

(٢) الكهف ١١٠ جزء آية.

(٣) المسند المستخرج على صحيح مسلم إلى ابن عمر ٢٤٨٠، وفي الترمذي برقم ٧٧٨ وقال حديث حسن صحيح.

(٤) الأعراف ٤٨ جزء آية.

والأعراف: جمع عُرف، وهو المرتفع من الأرض، ومنه عرف الفرس، وعرف الديك لعلوهما.

وقال السدي: سُمي الأعراف ؛ لأن أصحابه يعرفون الناس.

قال ابن عطية: وهذه عجمة، والألف واللام في قوله تعالى: "وعلى الأعراف" للعهد على ما يقتضيه كلام بعضهم؛ لأن المعنى:

وعلى أعراف ذلك "الحجاب" ن أي: أعاليه.

قيل: " والحجاب" : هو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله : "فضرب بينهم بسور له باب"[٢] الآية.

وقوله: " رجال" قال أبو مجلز : هم ملائكة. ولفظ " رجال" مستعار لهم، لأنهم في تماثيل رجال، وهم ذكور ليسوا بإناث.

وقد جاء إطلاق لفظ "الرجال" على الجن.

وقال الجمهور: هم رجال من البشر، ثم اختلفوا فقال مجاهد: هم صالحون علماء فقهاء.

وحكي الزهراوي: إنهم عدول القيامة، الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم من كل أمة.

وقيل: هم أنبياء.

وقال المهدوي: هم الشهداء،

---

(١) الحديث بهذه الألفاظ ذكره القرطبي في التفسير وقال "قال ابن عطية وذكر الزهراوي حديثا، وساق الحديث".
وللحديث بروايات بألفاظ مختلفة وهو في البخاري (٤٤٢٢). وفي مسند أحمد ي١/ ٤٠ رقم ٣٩.

(٢) الحديد ١٣ جزء آية،

وقيل: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم.

وذكر الطبري في ذلك حديثًا عن النبي ﷺ : "وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم".

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، والشعبي، وابن جبير، والضحاك وغيرهم: هم أقوام استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال ابن عطية: واللازم من الآية: أن على أعراف ذلك السور، أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين_حيث شاء الله تعالى_ رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين يعرفون كلاً بسيماهم، أي: بعلامتهم، وهي بياض الوجوه، وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها من أهل النار ... إلى غير ذلك في هؤلاء، وفي هؤلاء.

قوله تعالى: " لم يدخلوها" : أي لم يدخلوا الجنة بَعدُ وهم يطمعون، أي: في دخلوها.

قال الحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لخير أراده لهم .

قال ابن عطية : وهذا هو الأظهر الأليق.

قال: ولا نظر لأحدٍ مع قول النبي ﷺ : يعني في الحديث الذي ذكره الزهراوي ، إذا عرفت ما يتعلق بالآية الكريمة.

فاعلم أن سهلاً رضي الله عنه شبه أهل المعرفة، وحالهم في الدنيا بحال أصحاب الأعراف في الآخرة، واستعار لهم أصحاب الأعراف لما بينهما من المشابهة في المعنى، والمناسبة في اللفظ.

وقولهم: "أقامهم مقامًا" أي عاليًا من حيث الرتبة، وارتفاع القدر والمنزلة، و "أشرف بهم" : أي جعلهم مشرفين.

فالباء فيه للتعدية.

ومراده (بالدارين) : الدنيا والأخرة.

و(بالملكين) : عالم المُلك والملكوت.

فكما أن الله تعالى أشرف بأصحاب الأعراف في الآخرة على الجنة والنار، وعَرفهم كلا من أهل الجنة بسيماهم كذلك فعل بأهل المعرفة في الدنيا فعّرفهم الدارين الدنيا وحالها في الفناء والزوال، والآخرة وحالها في البقاء، وخلود النوال أو النكال، وعرفهم أيضا الملكين: وما فيهما من عجائب القدرة، وغرائب الحكمة.

ص: قوله: "أنشدونا لبعضهم:

يا لهف نفسي على قوم مضوا فقضوا ... لم أقض منهم وإن طاولتهم وطري

هم المخافيت في كبر الملوك إذا ... أبصرتهم قلت إضمار بلا صور"[1]

ش: لهف بالكسر يلهف لهفًا: أي حزن وتحسّر.

وقولهم: يا لهف كذا كلمة تتحسر بها على ما فات.

وقول الناظم: "فقضوا" بجوز أن يكون من قولهم: قضى فلان، أي: مات ومضى ويجوز أن يكون معناه: فقضوا أوطارهم، وقد ترجح هذا الاحتمال الثاني بوجهين: **أحدهما:** سلامته مما في الأول من لزوم التكرار مع قوله: "مضوا" إلا أن يتكلف في ابتداء الفرق بينهما.

والثاني :قوله بعد ذلك: "لم أقض منهم وطري" : كأنه قال: هم قضوا أوطارهم، ووصلوا ما قدّر لهم من الكمالات والكرامات، " وبقيت في خلف كجلد الأجرب " لم أقض من صحبتهم وطري وإن طالت صحبتي لهم.

وظاهر قوله: "طاولتهم" أنه بمعنى غالبتهم في الطول بمعنى الفضل، أي طلبت أن أكون مثلهم في الفضل، أو أفضل منهم، فلم أستطع.

"والمخافيت" جمع مخفوت، وهو من الخفت بمعنى، الإسرار.

قال الجوهري : المخافتة، والتخافت إسرار المنطق، والخفت مثله.

---

(١) لم أجده إلا في التعرف.

وقد أراد الناظم بذلك: إنهم أخفياء كسائر الأصفياء، واستعمال هذا اللفظ في غير ما هو من قبيل الأصوات على سبيل التجوز بإطلاق أي: اسم الأخص على الأعم.

وقوله: "في كبر الملوك" في موضع الحال: أي الذي كائنين في كبر الملوك لتنزههم عن الخساسات، وترفعهم عن الرياسات، وعدم التفاتهم إلى المخلوقات، لكون الخلق في نظرهم كالأموات، على ما نقل عن أبي يزيد بعد كلام له في رياضة النفوس.

أنه قال: فكشف لي عن الخلق فرأيتهم موتى فكبّرت عليهم أربع تكبيرات.

قال الشيخ محي الدين النواوي رحمه الله تعالى في شرح كلامه.

وأما قوله: " فرأيتهم موتى" فهو في غاية من النفاسة والحُسن.

وقل أن يوجد في غير كلام النبي ﷺ كلام يحصّل معناه: قال: " وأنا أشير إلى شرحه بعبارة وجيزة " يعني: أنهه لما جاهد هذه المجاهدة وتهذيب نفسه، واستنار قلبه، واستولى على نفسه فقهرها وملكها ملكًا تامًا، وانقادت له انقيادًا خالصًا، نظر إلى جميع المخلوقين فوجدهم مواتًا لا حكم لهم فلا يضرون ولا ينفعون، ولا يعطون ولا يمنعون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يصلون ولا يقطعون، ولا يقرّبون ولا يُبعدون، ولا يسعدون ولا يشقون، ولا يرزقون ولا يُحرمون، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. وهذه صفة الموات فينبغي أن يعاملوا معاملة الموتى في هذه الأمور المذكورة، وألا يخافوا ولا يرجعوا، ولا يُطمع فيما عندهم، ولا يُراؤا ولا يداهنوا، ولا يُشتغل بهم، ولا يحتقروا ولا يُنتقصوا، ولا يذكر عيوبهم، ولا تتبع عثراتهم، ولا ينقب عن زلاتهم، ولا يُحسدوا، ولا يُستكثر فيهم ما أعطاهم الله تعالى، ويرحموا، ويعذروا فيما يأتون به من النقائض مع أناه نقيم عليهم ما جاء به الشرع من الحدود، ولا يمنعنا إقامة الحد ما قدمناه ولا يمنعنا أيضًا ما قدمناه من إقامة الحد أنا نحرص على ستر عوراتهم من غير تنقص لهم بها كما يفعل ذلك بالميت ولا يفعل شيئًا لهم، ولا نتركه لهم، ولا نمتنع من القيام بشيء من طاعة الله تعالى بسببهم، كما لا نمتنع من ذلك بسبب الميت، ولا نتكثر بمدحهم، ولا نحبه، ولا نكره سبهم إيانا، ولا نقابله.

فالحاصل أنهم كالعدم في جميع ما ذكرناه ،وهم مدبّرون تجري فيهم أحكام الله تعالى، فمن عاملهم هذه المعاملة جمع خير الدنيا والآخرة.

نسأل الله الكريم التوفيق لذلك.

فهذه الأحرف كافية في الإشارة إلى شرح كلامه ﷺ .

والله ﷻ أعلم.

هذا آخر كلام النواوي في شرح ما تقدم نقله عن أبي يزيد ، وقد أطنب في شرحه؛ وبسط القول فيه لشدة عنايته رحمه الله تعالى بالحث على العمل بمعانيه.

وأما قول الناظم: "إذا أبصرتهم قلت: إضمار بلا صور" ، فإن تقديره : قلت هم ذوو إضمار أي: لكونهم أخفياء بين الناس، كما ورد في حقهم؛ "أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري" كأنهم معان مضمرة لا صور لهم بين الناس، أو لا يعلم حالهم على ما هم عليه فهم أضمار لذلك، أولكونهم محتقرين في أعين الناس لا يؤبه بهم ليس لهم صور عند الناس، فهم أضمار لشدة خمولهم.

كما ورد في الحديث:["رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره"] (١).

* * *

(١) سبق تخريجه.

الباب الثالث والستون

في المريد والمراد

قال المصنف

المُرِيد: مُرَادٌ في الحقيقة، والمُرَادُ: مُرِيد؛ لأن المريد لله تعالى: لا يريد إلا بإرادة من الله ﷻ تقدمت له، قال الله تعالى: {يحبهم ويحبونه}، وقال: {رضي الله عنهم ورضوا عنه}، وقال: {ثم تاب عليهم ليتوبوا}، فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له؛ إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل: المريد مرادا، والمراد مريدا، غير أن المريد: هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد: هو الذي سبق كشوفه اجتهاده.

فالمريد: هو الذي قال الله تعالى عنه: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، وهو الذي يريده الله تعالى فيقبل بقلبه، ويحدث فيه لطفا يثير منه فيه: الاجتهاد فيه، والإقبال عليه، والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال، كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي ". ثم قال: وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا "، فأخبر: أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد: هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة، ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهادا فيه، وإقبالا عليه، وتحملا لأثقاله، كسحرة فرعون، لما كوشفوا بالحال في الوقت، سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض ". وكما فعل بعمر بن الخطاب ﷺ، أقبل يريد قتل رسول الله، فأسره الحق في سبيله. وكقصة إبراهيم بن ادهم، خرج يطلب الصيد متلهيا، فنودي: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت " مرتين، ونودي في الثالثة: من قَرَبُوس سرجه، فقال:

والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي"؛ هذه جذبة القدرة، كوشفوا بالأحوال، فأسقطوا عن النفوس والأموال.

أنشدني الفقيه أبو عبد الله البرقي لنفسه:

مريد صفا منه سر الفؤاد *** فهام به السر في كل واد

ففي أي واد سعى لم يجد *** له ملجأ غير مولى العباد

صفا بالوفاء وفى بالصفا *** ونور الصفاء سراج الفؤاد

أراد وما كان حتى أريد *** فطوبى له من مريد مراد

* * *

قال الشارح

ش :الأصل في إطلاق اسم الإرادة على طلب السلوك لطريق الآخرة والوصول إلى الله تعالى، قوله: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا " (١).

هذا في "المريد".

وأما "المراد" : فيستأنس له بقوله ﷺ : [" إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله" ، قيل: كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال: "يوفقه لعمل صالح قبل الموت"] (٢) .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه : الإرادة بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله، وإنما سميت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يرد العبد شيئًا لم يفعله ، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله سمي إرادة تشبيهًا بالقصد في الأمور التي هو مقدمتها.

قال: "والمريد" : على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن: المريد في هذه الطريقة من لا إرادة له، فما لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريدًا، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريدًا.

قال: وتكلم الناس في معنى: الإرادة، فكل عبّر على ما لاح لقلبه، فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس التعريج في أوطان الغفلة، والركون إلى إتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه النية، والمريد منسلخ من هذه الجملة.

ثم قال ما معناه: إن ترك العادة ليس هو حقيقة الإرادة، بل أمارتها، فأما حقيقتها فهو نهوض القلب في طلب الحق سبحانه.

---

(١) الأنعام ٥٢.

(٢) حديث حسن صحيح رواه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك (٢١٤٢).

قال: ولهذا يقال إنها لوعةٌ تهون كل روعة.

قال: سمعت الأستاذ أبا علي يقول حاكيًا عن ممُشاذ الدينوري أنه قال: قد علمت أن أحوال الفقراء جدّ كلها لم أمازج فقيرًا قط، ذاك أن فقيرًا قدم عليّ فقال: أريد أن تتخذ لي عصيدة ، فجرى على لساني إرادة و عصيدة فتأخر ولم أشعر، فأمرت باتخاذ عصيدة وطلبت الفقير فلم أجده، فتعرفت خبره، فقيل: إنه انصرف من فوره، وكان يقول في نفسه: إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة وهام على وجهه حتى دخل البادية، ولم يزل يقول: هذه الكلمة حتى مات.

وعن بعض المشايخ قال: كنت في البادية وحدي فضاق صدري فقلت: يا إنس كلموني، يا جن كلموني، فهتف لي هاتف، إيش تريد؟ فقلت: أريد الله، فقال الهاتف: حتى تريد الله يعني أن من قال للجن والإنس كلموني متى يكون مريدًا لله ؟ .

ص: قوله: "المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله ﷻ تقدمت له.

قال الله تعالى: "يحبهم ويحبونه"[١]، وقال (رضي الله عنهم ورضوا عنه) [٢].

وقال: "ثم تاب عليهم ليتوبوا"[٣]، فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له، إذ علة بكل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومَن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل المريد مرادًا والمراد مريدًا " .

ش : قصد المصنف بهذا الكلام الإعلام بأن مشايخ الصوفية وإن فرقوا بين المريد والمراد بما سيأتي ذكره، فهما في الحقيقة متلازمان ولا تنافي بين ما ذكره وما سيذكره، لأن التلازم في الوجود على ما ذكره لا ينافي الاختلاف في الحقيقة.

---

(١) المائدة ٥٤.

(٢) البينة ٨.

(٣) التوبة ١١٨.

وأشار إلى استلزام المريد لكونه مرادًا بقوله: "لأن المريد" إلى قوله: "ولا علة لصنعه" وهو واضح. ومما يدل على أن إرادة العبد تابعة ومعلولة لإرادة الله تعالى قوله تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله"[١].

قال بعضهم: وإذا كانت علة محبة العبد لله تعالى هي محبة الله له وجب أن تكون محبة الله له على مقدار محبته لله تعالى للزوم توافق العلة والمعلول في القوة والضعف.

قال: ويؤيده ما ورد في الحديث: [أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هل يعلم العبد ما منزلته عند الله ؟ قال: "نعم. ينظر إلى منزلة الله عنده فإن الله تعالى يُنزِل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه" أو كما قال] [٢].

وهذا أصل عظيم وخطبٌ جسيم يظهر به تفاوت درجات المحبين عند الله تعالى.

وأشار المصنف إلى استلزام المراد لكونه مريدًا بقوله: "ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد" ، ولو أسقط لفظ "العبد" لأفاد المقصود، والعبارة الواضحة في ذلك أن يقال: "ومن أراده الحق فمحال أن لا يريد الحق" غير أن المصنف أقام الظاهر الذي هو – العبد– مقام المضمر العائد على من ، وهو نحو قول الشاعر:

وأنت الذي في رحمة الله أطمع .... [٣].

---

(١) الإنسان ٣٠.

(٢) الحديث رواه الطبراني بألفاظ متقاربة في المعجم الأوسط ٣/٦٧ عن جابر بن عبد الله وقال فيه أنهي لا يروي عن جابر إلا بهذا الإسناد.

(٣) "هذا شطر بيت وهو في شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١/ ١٢٧ تمامة "

فيارب أنت الله في كل موطن ٠٠ وأنت الذي في رحمة الله أطمع".

قال في الحاشية: البيت للمجنون في الدرر ١/ ٢٨٦ وشرح شواهد المغني٢/ ٥٥٩ والمقاصد النحوية ١/ ٤٩٧ وليس في ديوانه.

فأظهر المصنف العبد وأضمر الحق، والصواب إضمار العبد وإظهار الحق، وهو المناسب لحال الفناء.

ص: قوله: "غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده".

ش أي لابد في كل منهما من الاجتهاد، وإنما افترقا بالتقدم والتأخر.

وقال صاحب العوارف في باب شرح رتبة المشيخة (الشيخ الذي يكتسب بطريقه الأحوال قد يكون مأخوذًا في ابتدائه في طريق المحبين، وقد يكون مأخوذًا في طريق المحبوبين، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام: سالك، ومجذوب، وسالك متدارك بالجذبة ومجذوب متدارك بالسلوك، فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة، والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئًا من الحجاب، ولا يؤخذ في طريق المعاملة.

قال: وللمعاملة أثر تام سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وهذا أيضًا لا يؤهل للمشيخة، ويقف عند حظه من الله مروحًا بحال غير مأخوذي في طريق أعماله ما عدا الفريضة.

والسالك الذي تُدورك بالخدمة هو الذي كانت بدايته المجاهدة والمكابدة، والمعاملة بالإخلاص، والوفاء بالشروط، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المشاهدة، وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب من المشاهدة، فوجد دواؤه، وفاض وعاؤه، وصدرت منه كلمات الحكمة، ومالت إليه القلوب، وتوالي عليه فتوح الغيوب، وصار ظاهره مسددًا، وباطنه مُشاهداً و صلح للجلوة وصار له في جلوته خلوه فيغلب ولا يُغلب، ويفترس ولا يُفترس يؤهل مثل هذا للمشيخة، لأنه أخذ في طريق المحبين ومُنح حالاً من أحوال المقربين بعدما دخل في طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم

علوم، ويظهر بركة تركة، ولكن قد يكون محبوسًا في حاله محكمًا، حاله فيه لا يطلق من وثاق الحال، ولا يبلغ كمال النوال، يقف عند حظه وهو حظ وافر سني "والذين أتوا العلم درجات"[١]، ولكن المقام الأكمل في المشيخة هو القسم الرابع – وهو المجذوب المتدارك بالسلوك، يناديه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة وينشرح وينفسح قلبه، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، ويرتوي من بحر الحال، ويتخلص من الإعلال والأغلال، ويقول معلنًا : لا أعبد ربًا لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، ويجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذاذة وهناء، ويصير قالبه بصفة قلبه لامتلاء قلبه بحب ربه، فيلين جلده كما لان قلبه، وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل كإجابة قلبه، فيزيده الله إرادة خاصة، ويُرزق محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين، فينقطع فيواصل، ويعرض فيراسل، يذهب عنه جمود النفس، ويصطلي بحرارة الروح، وينكمش عن قلبه عروق النفس، قال الله تعالى: "الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله"[٢]، أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد)[٣]. ثم إن صاحب العوارف بعد إثبات أهلية المحبوب المراد المذكور للمشيخة، أتى بأشياء حسنة من صفاته وأحواله، فلينظر في كلامه من أحب الاطلاع عليه.

ص: قوله: "قال الله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"[٤]، وهو الذي يريده الله تعالى، فيقبل بقلبه إليه، ويحدث فيه لطفًا ينير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له، ثم يُكاشفه مكاشفة الأحوال.

---

(١) المجادلة جزء آية ١١.

(٢) الزمر ٢٣.

(٣) عوارف المعارف صـ١٥٧ :صـ١٥٨

(٤) العنكبوت ٦٩.

كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا فاظمأت نهاري وأسهرت ليلي، ثم قال: فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا.

فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا".

ش : أي سبق اجتهاده بالإعراض عن الدنيا وغير ذلك من وجوه المجاهدات، فأنتجت له المجاهدة والعزوف والمشاهدة والكشوف يقتضي الوعد الكريم من الرحمن الرحيم، حيث قال: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[١]".

وقول المصنف: "وهو الذي يريده الله" إلى آخره إشارة إلى ما سبق أن المريد لا يريد إلا بإرادة من الله تقدّمت له، وحركت إرادته، وجعلت قلبه مقبلاً على الله تعالى.

فالباء في قوله: فيقبل بقلبه للتعدية، ويجوز أن تكون للمصاحبة، ثم يترتب على إرادة المريد إرادة أخرى خاصة من الله تعالى له، وهي إرادة المكاشفة والمحبة ونحو ذلك.

فإرادة المريد واقعة بين إرادتين لله تعالى.

وهذا في السالك المتدارك بالجذبة.

ص: قوله: "والمراد هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهادًا فيه وإقبالاً عليه، وتحملاً لأثقاله كسحرة فرعون لما كوشفوا بالحال في الوقت سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا: "لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض"[٢]] .

ش : أي الذي سبق كشوفه اجتهاده وهو المراد، هو الذي يجذبه الحق أولاً بمحض المشيئة والعناية الأزلية جذبة القدرة، يعني من غير ما يقتضيه ظاهر الحكمة من ترتيب المسببات على الأسباب.

---

(١) العنكبوت ٦٩.

(٢) طه ٧٢.

وأراد المصنف بقوله: "فيثير قوة الشهود" ... إلى آخره معنى ما قاله صاحب العوارف، ثم يفيض من باطنه إلى ظاهره، ويجري عليه صورة المجاهدة إلى آخر ما تقدم نقله عنه.

وهذا في المجذوب المتدارك بالسلوك،

ولم يتعرض المصنف للسالك المجرد عن الخدمة، ولا المجذوب المجرد عن السلوك لعدم صلاحيتهما للاقتداء بهما.

ص:قوله: "وكما فعل بعمر بن الخطاب ﷺ : أقبل يريد قتل رسول الله ﷺ فأسره الحق في سبيله".

ش :أي جذبه فهداه واجتباه لمحض المشيئة. قال الله تعالى: "الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب"(١).

وقد روى فيما صنف من السير ومعرفة أحوال الصحابة ﷺ روايات مختلفة في إسلام عمر ﷺ مع أنها متقاربة في المعنى:

منها: أن قريشاً بعثت عمر بن الخطاب ﷺ وهو يومئذٍ مشرك في طلب رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ في دارٍ في أصل الصفا، فلقيه النحّام(٢) وهو: نعيم بن عبد الله بن أسيد أخو عدي بن كعب، قد أسلم قبل ذلك، وعمر متقلد سيفه، فقال: يا عمر أين تريد ؟ فقال: أعمد إلى محمد هذا الذي سفّه أحلام قريش، وشتم آلهتها، وخالف جماعتها، فقال النحّام: والله لبئس المشي مشيت يا عمر، ولقد فرطتَ وأردت هلكة عدي بن كعب، أوَ

---

(١) الشورى ١٣.

(٢) هو نعيم بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن عبد عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب ، أسلم قبل الهجرة ممن هاجر إلى أرض الحبشة.... راجع المستدرك على الصحيحين « كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم » ذكر مناقب نعيم النحام العدوي رضي الله عنه ص ٢٩٠ طبع دار المعرفة.

تراك تفلّت من بني هاشم وبني زهرة، وقد قتلت محمدًا فتحاورا حتى ارتفعت أصواتهما، فقال له عمر: إني لأظنك قد صبأت، ولو أعلم ذلك لبدأت بك، فلما رأى النحّام أنه غير منته، قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك، فلما سمع عمر تلك يقولها، قال: وأيهم قال ختنك وابن عمك وأختك، فانطلق عمر حتى أتى أخته وهي - فاطمة بنت الخطاب- وكان رسول الله ﷺ إذا أتته طائفة من أصحابه من ذوي الحاجة نظر إلى أولي السعة، فيقول: يكون عندك فلان، فوافق ذلك ابن عمر وختنه زوج أخته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فدفع إليه رسول الله ﷺ خبّاب بن الأرت، وقد أنزل الله تعالى: "طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى* تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى* الرحمن على العرش استوى* له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى* وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى* الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى"[1] ، وعندما أتى عمر أخته وختنه كان عندهما خباب ومعه صحيفة فيها: "طه" يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر تغيّب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قرأة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له: ما سمعت شيئًا، قال: بلى والله، ولقد أخبرت أنكما بايعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد ابن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمدّ، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك لأخته قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنّها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك لها طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها: "طه" فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع خباب ذلك خرج إليه، فقال له: يا عمر

(١) طه ١ : ٨ .

والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: "اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب" ، فالله الله يا عمر، فقال له عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمدٍ حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله: هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب، وكان مع رسول الله ﷺ في البيت فأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ : "ائذن له"، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحُجرته أو بجمع ردائه، ثم جبذه جبذةً شديدة، وقال: "ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة" ، فقال عمر: يا رسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: "فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم" ، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم مع إسلام حمزة رضي الله عنهما ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم – رضي الله عن الصحابة أجمعين – .

ص: قوله: "وكقصة إبراهيم بن أدهم خرج لطلب الصيد متلهيًا فنودي : ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت مرتين، ونودي الثالثة من قربوس سرجه، فقال والله لا عصيت الله بعد يومي ما عصمني ربي".

هذه جذبة القدرة كوشفوا بالأحوال فأسقطوا عن النفوس والأموال".

ش :ذكر السلمي رحمه الله تعالى في طبقات الصوفية عن إبراهيم بن بشار أنه قال لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحق خبرني عن بدائك كيف كان ؟. قال: كان أبي من ملوك خراسان وكنت شابًا فركبت إلى الصيد، فخرجت يومًا على دابة لي ومعي كلب، فأثرت

أرنبا أو ثعلبًا، فبينا أنا أطلبه إذ هتف لي هاتف لا أراه فقال: يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت، ففزعت ووقعت، ثم عدت فركضت الثانية، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرات، ثم هتف بي هاتف من قربوس السرج: والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، قال: فنزلت فصادفت راعيًا لأبي يرعى الغنم، فأخذت جبته الصوف فلبستها، ودفعت إليه الفرس وما كان معي، وتوجهت إلى مكة فبينا أنا في البادية إذا برجل يسير ليس معه إناء ولا زاد، فلما أمسى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أفهمه، وإذا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت، وكنت معه على هذا أيامًا، وعلمني اسم الله الأعظم، ثم غاب عني وبقيت وحدي، فبينا أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة، دعوتُ الله به، فإذا أنا بشخص أخذ بحجزتي وقال: سَل تعطه، فراعنيَ قوله: لا روع عليك أو لا بأس عليك أنا أخوك الخضر، إن أخي داود علمك اسم الله الأعظم فلا تدع به على أحد بينك وبينه شحنًا فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة، ولكن ادع أن يجمع به خيرك، ويقوي به ضعفك، ويؤنس به وحشتك، ويجدد في كل ساعة رغبتك، ثم انصرف وتركني.

وقوله: "ما عصمني ربي" إشارة إلى أنه ليس بيد العبد شيء من أمره خيره وشره، نفعه وضره، إيمانه وكفره، عصيانه وبرّه، بل الله خالق كل شيء، ومالك أمر كل شيء ميت وحي.

وقول المصنف: "كوشفوا بالأحوال" أي: ابتداءً.

"فأسقطوا عن النفوس والأحوال" أي: عن الالتفات إليها والخوف عليها، – فأما السقوط عن النفوس – فكما اتفق لسحرة فرعون.

– وعن الأحوال – فكما اتفق لإبراهيم بن أدهم.

ص: قوله: "أنشدني أبو عبد الله الفَتَيه البرقي لنفسه:

مريد صفا منه سرُ الفؤاد … فهام به السر في كل واد.

على أي وادٍ سعى لم يجد .. له ملجأ غير مولى العباد.

صفا بالوفاء وفي بالصفا … ونور الصفاء سراجُ الفؤاد.

أراد وما كان حتى أريد فطوبى له من مريد مرادِ.

ش : معنى صفاء السر: خلوصه من الكدورات البشرية، ويجوز أن يكون معناه أنه: لم يبق فيه إلا الله ومحبته ومعرفته، فخلصت المحبة والمعرفة عن غيرهما.

وقوله: "فهام به" يجوز أن يكون المراد به أنه كان هائمًا في كل وادٍ من أودية التفرقة، والاشتغال بالأكوان إلى أن صفا السر فزال عنه ذلك الهيمان، إلا أن الذي يقتضيه ظاهر اللفظ أن هيمان سره في كل وادٍ إنما هو بعد صفائه، فليحمل على تعدد التجليات الإلهية في مظاهر الأفعال، وكل منها طريق في الوصول إلى الله تعالى، فإن الطريق إلى الله تعالى كما قيل بعدد الأنفاس، ويناسب هذا المعنى البيت الثاني، فإن مضمونه أن السالك أي طريق سلك لم يجد فيه سوى الله تعالى.

وأما البيت الثالث فمعناه: أنه صفاء ملتبسًا بالوفاء أو بسبب وفائه بشروط العبودية من الصدق والإخلاص وغير ذلك، ووفى بالعبودية ملتبسًا بالصفاء أو بسبب الصفاء بناءً على ما مرّ أن قوة الشهود في المراد تثير منه السعي والاجتهاد، وأنه كلما ازدادت المعرفة في الباطن ازدادت الخدمة في الظاهر، لا كما توهمه بعض الضُلال من استبشاع الأعمال بالنسبة إلى أصحاب الأحوال، - على ما تقدم التنبيه على فساد هذا القول، وكونه من أبشع الأقوال -.

وأما كون نور الصفاء سراج الفؤاد فواضح، فإنه يشاهد به ملكوت السموات والأرض، ويكون من الموقنين.

جعلنا الله تعالى منهم ونفعنا بهم أجمعين.

وأما البيت الرابع فمعناه: أنه أراد السلوك إلى الله تعالى، وما كاد أن يريد ذلك حتى أريد : - أي حتى أراده الله تعالى- وهو إشارة إلى ما سبق من أن المريد لله تعالى لا يريده إلا بإرادة من الله تعالى تقدمت له فكانت سبب إرادته، كما أشار إليه قوله تعالى: "يحبهم ويحبونه" .... إلى غير ذلك من الآيات التي مر الاستشهاد بها، وتبين أيضًا أن كل مريد مراد وبالعكس، وأنهما متلازمان مع تحقق الفرق بينهما.

الباب الرابع والستون

في المجاهدات والمعاملات

قال المصنف

قال بعض الكبراء: التعبد: إتيان ما وظف الله على شرط الواجب، وشرط الواجب، الإتيان به على غير مطالبة عوض، وإن شهدته فضلا، بل يستوفيك عن رؤية الفضل والعوض، ما لله عليك في العمل في قوله: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}؛ قال ليعبدوه بالرق لا بالطمع ".

قيل لأبي بكر الواسطي: بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعى؟ قال: بشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره ".

قال أبو عبد الله النباجي: استحلاء الطاعة ثمرة الوحشة عن الحق ﷻ، إذ لا يواصل الحق بها ولا يفاصل، ولا يعتمد عليها اعتماد معول، ولا يتركها ترك معاند، بل يقيم وظائف الحق رقا وعبودية، ويكون الاعتماد على ما في الأزل".

يريد " باستحلاء الطاعة "، رؤيتها من نفسك، دون مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق في قول الله تعالى: {ولذكر الله أكبر}، قال: أكبر من أن تبلغه أفهامكم، وتحويه عقولكم، ويجري على ألسنتكم. وحقيقة الذكر: هو نسيان ما سواه فيه، لقوله ﷻ: {واذكر ربك إذا نسيت}، وفي قوله تعالى: {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية}، أي: الخالية عن ذكر الله؛ لتعلموا أنكم بفضله تلتم، لا بأعمالكم.

قال أبو بكر القحطبي: نفوس الموحدين: نفوس سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها، واستقبحت كل باد بدا منها، وانقطعت عن الشواهد والعوائد والفوائد، وعجزت عن إظهار الدعوى بين يديه، لما سمعت قوله ﷻ: {ولا يشرك بعبادة ربه

أحدا} ".

الشواهد: الخلق، والعوائد: الأعواض، والفوائد: الأعراض.

قال أبو بكر الواسطي: معنى التكبير في الصلاة: كأنك تقول: جللت عن أن نواصل بها، أو نفاصل بتركها؛ إذ الفصل والوصل ليس بحركات، بل هو بما سبق في الأزل "

قال الجنيد: "لا يكونن همُّك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال لمن لا وسيلة إليه إلا به".

قال ابن عطاء: "لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها".

وقال غيره: "معنى الصلاة: التجريد عن العلائق، والتفريد بالحقائق، والعلائق: ما سوى الله، والحقائق: ما لله ومن الله".

وقال آخر: "الصلاة: وصل ".

قال: سمعت فارسا يقول: معنى الصوم: الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق ﷻ؛ لقوله تعالى في قصة مريم: {إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا} ". قال: لغيبتي عنهم برؤية الحق فلا أستجيز في صومي أن يشغلني عنه شاغل، أو يقطعني عنه قاطع؛ ويدل على قول النبي ﷺ: {الصوم جنة}، أي: حجاب عما دون الله.

في قوله تعالى: {الصوم لي وأنا أجزي به}، قال بعض الكبار أي: أنا الجزاء به ".

وقال أبو الحسن بن أبي ذر أي: معرفتي هي الجزاء له به ". قال: وحسبه ذلك جزاء؛ فما يبلغها شيء ولا يدانيها ".

سمعت أبا الحسن الحسني الهمداني يقول: معنى قوله: (الصوم لي)، كي ينقطع الأطماع عنه: طمع العدو أن يفسده؛ لأنّ ما لله فلا يطمع فيه العدو، وطمع النفس أن نعجب به؛ فإنها إنما نعجب بما لها، وطمع الخصوم في الآخرة؛ فإنهم يأخذون ما للعبد دون ما لله". هذا معنى ما فهمت من قوله.

قال بعضهم: جهد البلاء، النظر إلى النفوس، والاعتماد على الأفعال؛ فإن وكل إليها فهو درك الشقاء، وفي درك الشقاء شماتة الأعداء".

أنشدونا للنوري:

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى *** فَيَبْعُـــدُ عنّي ما أقولُ أكادُ
فما لي جهاد غير أني مقصـر*** وعجزي عن طول الجهاد جِهادُ
وإن رجائي عودة منك بالرضا *** وإلا فحظّي في المعـــادِ بِعَادُ

أنشدونا لغيره:

هبني أراعيك بالأذكار ملتمسا ما يبتغيه ذوو التلويــن بالغِيَر
فكيف لي بشهودٍ منك يحملني عن فتنة الوقت بل عن حجبة الأثر

يقول: إن طالعت في أفعالي ومجاهداتي ثوابك عليها (وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات) فيكف أطالع شهود ما يحملني عن خوف العاقبة (من تغيير الأحوال والأوقات)، وعن النظر إلى حركاتي ومجاهداتي (وهي التي تحجبني عنك) ؟

قال الشارح

ص: قوله: "قال بعض الكبراء: التعبد إتيان ما وظف الحق على شرط الواجب".

وشرط الواجب، الإتيان به على غير مطالعة عوض وإن شهدته فضلاً، بل يستوفيك عن رؤية الفضل.

والعوض، ما لله عليك في العمل".

ش لما ذكر أن اجتهاد المريد يسبق كشوفه، وكان الغالب من حال القوم ذلك شرع في ذكر المجاهدات والمعاملات عن أبي محمد الحريري.

قال : سمعت الجنيد يقول: ما أخذنا التصوف من القيل والقال، ولكن من الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

وقد قيل: حقيقة الإرادة استدامة الجدّ وترك الراحة.

وقال أبو عثمان: عقوبة قلب المريد أن تُحجب عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها، ومبني طريق القوم في معاملاتهم على حسن المتابعة، ومن ظن أنه يبلغ غرضًا أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور.

عن أبي سعيد الخراز أنه قال: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل.

وكان يقول الجنيد: علمنا هذا مشتبك لحديث رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة.

وما نقله المصنف في تفسير التعبد يشمل الواجب والمندوب.

وقوله: "**على شرط الواجب**" : معتبر في المندوب أيضًا، وقد فَسره بعدم مطالعة العوض: **يعني الأجر على العمل.**

ونبه بقوله: "**وإن شهدته فضلاً**" على مذهب أهل السنة في أن الثواب فضل من الله تعالى لا يستحقه العبد بعلمه على سبيل المعاوضة، فكأنه قال بقطع النظر عما يترتب على

العمل سواء كان أجرا وعوضًا له أو فضلاً من الله تعالى، بل يستوفيك ويشغلك ما لله عليك في العمل عن رؤية الفضل والعوض، ومما لله عليك في العمل أنه وفقك للإتيان به وجعلك أهل لعبادته، وأن تبذل المجهود في موافقة أمره بذلك مع رؤية التقصير فيه فيشغلك النظر إلى ما لله تعالى عليك عما لك عند الله تعالى من الفضل والعوض. وكيف يحسن بالعبد أن يطلب العوض على عمله وهو يعلم ما لله تعالى عليه من المنن السالفة والنعم المترادفة، وأنه لا يقوم جميع أعماله مدة عمره وغاية سعيه فيه، واجتهاده بشكر فرد من أفراده ؟ كيف وعمله من جملة نعمه، وتوفيقه له من فضله وكرمه.

ص: قوله: "في قوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"[1]. قال: ليعبدوه بالرق لا بالطمع".

ش : أي قال بعض الكبراء في قوله تعالى، فالعامل في الجار والمجرور هو قوله: - قال- والمعنى: أن الله تعالى أخبر أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم تنبيهًا لهم على أنهم أرقاء لا يملكون شيئًا، فتكون عبادتهم له بالرق المحض؛ فإن الحر هو الذي يطمع في العوض. وكانت أموالهم وأنفسهم لله تعالى في نفس الأمر، لكنهم قبل التزام أحكام الإسلام والإذعان لعقود الإيمان ربما توهموا أنهم أحرار مستقلون، فلما أخبرهم أنه اشتراهم بحكم الإيمان تحققوا الرق فيلزمهم العمل على مقتضاه، وأن لا يقصدوا به إلا الله تعالى.

ولقائل أن يقول: مقتضى الآية كون الجنة ثمنًا فليس فيها ما يمنع من العمل لأجلها وإن كان قطع النظر عنها أعلى عند القوم.

وقد ورد في السنة ما يدل على فضيلة العمل لها كقوله: "حولها ندندن"[2].

---

(١) التوبة ١١١.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٧٩٢ عن بعض أصحاب النبي ورواه ابن حبان في صحيحه برواية متقاربة عن أبي هريرة ٨٦٨ " قال النبي ﷺ لرجل كيف تقول في الصلاة؟ قال: أتشهد وأقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال النبي ﷺ : "حولها ندندن".

ص: قوله: "قيل لأبي بكر الواسطي، بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعى؟".

قال: يشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره

ش : أي: ما الذي ينبغي أن يغلب على العبد ويشاهده في حركاته التي يسعى بها في العبادات وغيرها.

والجواب: أن الذي ينبغي أن يغلب عليه ويستحضره في حركاته هو الفناء عن رؤيتها.

ونبه على العلة في ذلك بقوله: "التي هي كائنة بغيره" أي مخلوقة لله تعالى لدخولها في عموم بقوله تعالى: "الله خالق كل شيء"[1]، فوجب على العبد الفناء عن رؤيتها لنفسه وإلاّ كان منازعًا للربوبية.

نعوذ بالله من ذلك.

ويلزمه حينئذٍ الفناءَ عن رؤية الجزاء وتوقع العوض.

ص: قوله: "قال أبو عبد الله النباجي: استحلاء الطاعة ثمرة الوحشة عن الحق، إذ لا يواصل الحق بها ولا يفاضل، ولا يعتمد عليها اعتماد معول، ولا يتركها ترك معاند، بل يقيم وظائف الحق رقًا وعبودية، ويكون الاعتماد على ما في الأزل.

- قال المصنف- : يريد باستحلاء الطاعة رؤيتها من نفسك، دون مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق".

ش : يجوز أن يكون مراد النباجي – باستحلاء الطاعة – ما ذكره المصنف.

ويجوز أيضًا أن يريد به: الإعجاب بالطاعة، والركون إليها، ويناسبه قوله بعد ذلك: "ولا يعتمد عليها" ... إلى آخره، وتعليله أيضًا بأن الطاعة لا تقتضي بذاتها الاتصال والقرب من الله تعالى، ولا تركها الاتصال كذلك، ولكنها لابد من فعلها لأن تركها معاندة

---

(١) الزمر جزء آية ٦٢.

للأمر بها، فوجب الإتيان بها امتثالاً للأمر، وقيامًا بحق الرق والعبودية مع مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق له، وسبق علمه الأزلي بذلك وبما يترتب عليه من الثواب الذي هو محض فضله، ولولا التوفيق السابق والفضل اللاحق لم يوجد الفعل؛ لم يكن طاعة أصلاً.

فكيف يحسن الذهول عن الأول والآخر، والاشتغال بالواقع بينهما لصدوره منك من حيث الظاهر مع كونه مخلوقًا لله تعالى أيضًا.

ويجوز أن يقرأ قوله: - لا يواصل ولا يفاصل- بفتح الصاد وكسرها.

أي لا يواصل الله بها، ولا يفاصل أو لا يواصل العبدُ الله ولا يفاصله.

والكسر أنسب لقوله بعده – ولا يعتمد – والفتح أوفق لما قبله؛ إذ لم يجر فيه ذكر الفاعل صريحًا، لكن دل عليه – الاستحلاء – .

وأراد – بالوحشة– : انتفاء الأنس لأن من استحلى طاعته فقد أنس بغير الله تعالى، والأنس بغير الله إنما يكون لمن لا أنس له بالله.

ص: قوله: "في قوله تعالى: "ولذكر الله أكبر"[1]، قال: أكبر من أن تبلغه أفهامكم، وتحويه عقولكم، ويجري على ألسنتكم.

وحقيقة نسيان ما سواه فيه لقوله ﷺ: "واذكر ربك إذا نسيت"[2].

ش : يعني: واذكر ربك إذا نسيت غير ربك.

ص: قوله: "وقوله: "كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية"[3].

– قال المصنف– : أي: الخالية عن ذكر الله لتعلموا أنكم بفضله نلتم ما نلتم لا بأعمالكم".

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) الكهف ٢٤.

(٣) الحاقة ٢٤.

ش : الكلام على الجار والمجرور: أعني قوله: في قوله تعالى، والعامل فيه على ما تقدم. أي: قال قائل في تأويل قول الله ﷻ: "ولذكر الله أكبر" : إن معناه: ولذكر الله كما ينبغي أكبر من أن يبلغه أفهامكم، وتحويه عقولكم، وتجري على ألسنتكم.

وقيل معناه: ولذكر الله أكبر من ذكركم له إلى غير ذلك من الوجوه التي سبق ذكر بعضها على ما أظن في باب الذكر.

ثم أشار المصنف إلى أن حقيقة الذكر لله تعالى أن ينسى الذاكر في ذكر الله ما سوى الله، فلا يكون له الالتفات إلى غير الله تعالى، وكون الذكر صفة للذاكر يقتضي أن الالتفات إليه وإلى كونه منه التفات إلى غير الله تعالى، فمن رأى ذكره في ذكره فليس بذاكر على الحقيقة.

وأما قوله تعالى: "واذكر ربك إذا نسيت" ، فالذي ذكره جماهير المفسرين: أن معناه إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله تعالى فاذكره، وقوله: إذا تذكرت وهو المناسب لما قبله.

وأما ما ذكره المصنف فقد ذكره غيره أيضًا من مشايخ الصوفية على بُعدٍ فيه.

وأبعد منه قوله في تفسير – الأيام الخالية- أي الخالية عن ذكر الله تعالى فإنه بعيد جدًا ومخالف لظاهر قوله تعالى: "بما أسلفتم" فإن المراد به على ما ذكره المفسرون: الأعمال الصالحة، والخالية: أي الماضية على قول المفسرين، وخلا بمعنى: كثير شائع، ومنه قولهم: في التاريخ : لست خلون.

ونحو ذلك.

ص: قوله: "قال أبو بكر القحطبي: نفوس الموحدين نفوس سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها، واستقبحت كل باد بدا منها، وانقطعت من الشواهد والعوائد والفوائد، وعجزت عن إظهار الدعوى بين يديه لما سمعت قوله تعالى: "ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا"[1].

---

(١) الكهف ١١٠.

- قال المصنف- : الشواهد الخلق، والعوائد: الأعواض، والفوائد: الأغراض".

ش : أراد القحطبي - بالموحدين- الكاملين في التوحيد.

- وبسائمة نفوسهم مما ذكر - عدم أنسها بشيء سوى ربها، لا سيمًا ما يرجع إليها من النعوت والصفات والأحوال والمقامات، فإن حقها أن تكون هاربة منها غير راكنة إليها.

وقوله: "استقبحت يكل بادٍ بدا منها".

وفي نسخة: "كل ما بدا منها" . أي من الأفعال فإنها لرؤيتها التقصير فيها تراها ناقصة معيبة، والقبح لازم النقصان والعيب، ومعنى انقطاعها من الشواهد على ما ذكره المصنف: إعراضها عن الخلق واشتغالها بالحق، ومن العوائد: خروجها عما اعتاده العمال من توقع الأعواض في الأعمال، ومن الفوائد: زهدها في عرض الحياة الدنيا.

والله أعلم.

وأما عجزها عن إظهار الدعوى بين يدي الله تعالى بنسبة الأفعال إلى أنفسها، فلما يلزمها بذلك من الشرك الخفي.

ولذلك قيل في القدرية أنهم مجوس هذه الأمة لإثباتها الاستقلال للعباد بإيجاد الأفعال، وقوله تعالى: "ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا"، ينفي ذلك كما ينفي الرياء بالعبادات أيضًا.

ص: قوله : "قال أبو بكر الواسطي: معنى التكبير في الصلاة كأنك تقول: جللت عن أن تواصل بها، أو تفاصل بتركها، إذ الوصل والفصل ليس بالحركات، بل هو بما سبق في الأزل".

ش : يعني أن المُصلّي إذا قال عند تحريمه: الله أكبر، كأنه يقول: الله أجل وأعظم من أن تكون صلاة مثلي علة لمواصلته أو تركها علة لمفاصلته، وقد مر غير مرة: إن الطاعات والمعاصي ليست عللاً للقرب والبعد، وإنما هي أمارات لا غير، والقرب والبعد والوصل

وانفصل بقضاء الله تعالى في الأزل لقوله القديم: "هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي"(١).

ص: قوله: "قال الجنيد لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إليه إلا به

ش: أي: لا تقتصر بمجرد الإتيان بصورة الصلاة دون التلبس بما هو المقصود منها، وهو جعلها وُصلة للاتصال بالله تعالى، فإنها تقطع المصلي عما سوى الله تعالى، وليس في العبادات ما يحرم فيه الاشتغال بالخلق.

والعوائد مثل ما يحرم في الصلاة؛ إذ يجب على المصلي كف أعضائه عن التصرفات العادية، وكذلك ينبغي له أن يكف قلبه عن الالتفات إلى غير الله تعالى حتى ينقطع عن الخلق بالكلية من حيث الظاهر والباطن فيتم له الاتصال بالحق، وحينئذٍ يحق له الفرح والسرور، وبذلك فإنه من فضل الله تعالى عليه، وقد قال تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا "(٢).. الآية. لكن لا ينبغي أن يعتقد أن صلاته علة للاتصال لما مر من نفي العلة من الأفعال.

وقد أشار الجنيد إلى ذلك بقوله: "لا وسيلة إليه إلا به" أي: بمحض الفضل منه.

وقد تقدم ذكر ذلك وتقريره غير مرة.

ص: قوله: "قال ابن عطاء: لا يكون همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها".

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ٣٣٨، والحديث: "خلق الله آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال: ... الخ".

(٢) يونس ٥٨.

ش : يشير بذلك إلى ما صح في الحديث من تفسير الإحسان: "بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك" [١].

وإذا تحقق المصلي رؤية الله تعالى في صلاته غلب على قلبه الهيبة والإجلال لمن يراه فيها، وإذا غاب عن قلبه استحضار هذا الحال فإنه الإحسان في الأعمال.

ص: قوله: "وقال غيره: معنى الصلاة التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق.

- قال المصنف - العلائق ما سوى الله تعالى، والحقائق ما لله ومن الله".

ش : أي حقيقة الصلاة وروحها والمقصود منها أن يتجرد العبد في صلاته عن كل ما سوى الله تعالى، يتفرد بمشاهدة ما لله من صفات الكمال، وبما منّ الله من أفعال البر والإفضال، فإذا تجرد قلب العبد عن العلائق، وتفرد بالحقائق، صار محل نظر الله تعالى، "فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم" [٢].

ص: قوله: "وقال غيره: الصلاة وصل".

ش : أي: حقيقة الصلاة، والمقصود منها: أن يكون صلة بين العبد وبين الله تعالى؛ فإن المصلي يناجي ربه، وإنما يكون كذلك إذا انقطع فيها عن كل شيء سوى الله تعالى، وتوجه بكليته إلى الله تعالى.

ص: قوله: " [قال سمعت فارسًا [٣] يقول: معنى الصوم الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق ﷻ، لقوله تعالى] في قصة مريم (عليها السلام) : "إني نذرت للرحمن صومًا فلن

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ٨ من حديث طويل.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ٦٥٦١ ٤ بألفاظ متقاربة.

(٣) الشيخ فارس البغدادي وكلامه حديث عن مرتبة من مراتب التصوف على ما هو معلوم هناك في كتب التصوف نحو منازل السائرين وإحياء علوم الدين إلى غير ذلك.

أكلم اليوم أنسيا"[١]، قال لغيبتي عنهم برؤية الحق فلا أستجيز في صـــومي أن يشـــغلني عنه شاغل أو يقطعني عنه قاطع.

ويدل عليه قول النبي ﷺ : "الصوم جنة"[٢]، أي حجاب عما سوى الله".

ش : الصوم الذي ذكره فارس هو صوم خصوص الخصوص، فإن صوم العموم هــو: الإمساك عن الأكل والشرب والوقاع على وجه مخصوص، وصوم الخصـــوص: إمســـاك الجوارح عن المخالفات مع الإمساك عن المفطرات الثلاث.

وقد ورد في الحديث: "أن الغيبة تفطر الصائم"[٣]، وأخذ بظاهره.

والجمهور على خلافه بالنسبة إلى صوم العموم وصوم خصوص الخصوص، إمســـاك القلب أيضًا عن رؤية الخلق واشتغاله برؤية الحق، وهذا معنى الغيبة عن رؤيـــة الخلـــق برؤية الحق.

وقد حمل فارس الصوم في قصة مريم على ذلك، ويجوز أن يكون مراده الاستشـــهاد بالآية على أن الصوم غير مقصور على الإمساك عن المفطرات الثلاث، بل قد يراد بـــه مطلق الإمساك، ومنه إمساك القلب عما سوى الله تعالى.

ص: قوله: "في قوله ﷺ : "الصوم لي وأنا أجزي به"[٤].

قال بعض الكبار: يعني: أنا الجزاء به.

وقال الحسن بن أبي ذر: أي معرفتي هي الجزاء له به، وحسبه ذلك جزاء فما شيء يبلغها ولا يدانيها " .

---

(١) مريم ٢٦.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ٢١ عن أبي هريرة والحديث "الصوم جنة من النار".

(٣) لم أقف على حديث بهذا المعنى ولا رأي فقهي ولكنه في كتب الأخلاق كالأحياء فإن النيـة مخالفة تخدش صوم خواص الخواص. فتأمله.

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة ٧٤٩٢.

ش :يريد أن معنى قول القائل في تفسير الحديث: "أنا الجزاء به" معرفتي هي الجزاء على إضمار المضاف، ويجوز أن يقدر رضاي ونحوه، ولابد من تقدير مضاف محذوف لاستحالة كون الذات المقدسة جزاء.

وحمل لفظ المصنف على معنى: "أنا الجزاء به" ليس بظاهر، وإنما كان يظهر ذلك إن لو كانت الرواية : – أنا أجزي به– على بناء ما لم يسم فاعله، والذي يظهر والله أعلم: أن معناه: وأنا أتولى جزاءه بنفسي بخلاف غيره من العبادات، فإنه ربما يأمر الله تعالى بعض ملائكته بمباشرة الجزاء عليه، وإنما خصّ الصوم بذلك لمناسبته لصفة الصمدية وبعده عن رياء الخلق.

قال النواوي في شرح هذا الحديث: اختلف العلماء في معناه مع كون جميع الطاعات لله تعالى، فقيل: سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يعبد أحد غير الله تعالى به، فلم يُعظّم الكفار في عصر من الأعصار معبودًا لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك.

وقيل: لأن الصوم يبعد منّ الرياء لخفائه بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة.

وقيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ، قاله الخطابي.

قال: وقيل لأن الاستغناء عن الطعام من صفات الله تعالى.

وقيل: معناه: أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته وغيره من العبادات، أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها.

وقيل: هي إضافة تشريف كقوله تعالى: "ناقة الله"[1]، مع أن العالم كله لله تعالى.

قال النواوي: وقوله تعالى: "وأنا أجزي به" بيان لعظم فضله وكثرة ثوابه لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء اقتضى عظم قدر الجزاء وسعة العطاء.

(١) الشمس ١٣ جزء آية.

ص:قوله: "سمعت أبا الحسن الحسني الهمداني يقول: معنى قوله: "الصوم لي" كي ينقطع عنه الأطماع، طمع العدو أن يفسده، لأن ما لله لا يطمع العدو فيه، وطمع النفس إن تعجب به، فإنها إنما تعجب بما لها، وطمع الخصوم في الآخرة فإنهم يأخذون ما للعبد دون ما لله.

- قال المصنف - : هذا معنى ما فهمت من قوله".

ش :أما أن العدو الذي هو إبليس لا يطمع فيما لله ولا سبيل له إلى إفساده، فلأن الله تعالى قد منعه من التسلط على عباده المختصين به المخلصين له. فقال جل من قائل: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان"[1]، فدل ذلك على أن لا تسلط ولا سبيل له على شيء، هو لله تعالى بمعنى الاختصاص الخاص، والعناية بأمره، وإلا فجميع الأشياء لله تعالى خلقًا وملكًا.

وأما انتفاء الإعجاب فلِمَا ذكره أبو الحسن المذكور. وفيه نظر؛ إذ ليس معنى قوله تعالى: "الصوم لي" إنه عملي أو فعلي، بل معناه: الاختصاص ومزيد العناية به، وذلك لا ينفي كونه كسب العبد وعمله، لكن حق العبد أن لا تعجب به ولا بغيره من إكسابه وأعماله لعلمه بعدم استقلاله، ولولا توفيق الله تعالى وخلقه لعلمه لما صدر منه شيء، وأما قطع طمع الخصوم في الآخرة فما ذكره فيه حسن، لأنه وإن كان كسبًا للعبد، لكن لما خصه الله تعالى بنفسه واختار كونه له فهو يتولى بفضله إرضاء خصومه، ونظير ذلك ولله المثل الأعلى: إن الورثة إذا اختاروا تملك ما يخلف عن الميت فعليهم أن يؤدوا ديون الميت من عندهم، وإلا أخذ الغرماء تركته.

ص:قوله: "قال بعضهم: جهد البلاء النظر إلى النفوس، والاعتماد على الأفعال، فإن وكل إليها فهو درك الشقاء، وفي درك الشقاء شماتة الأعداء".

(١) الحجر ١٢.

ش :هذا إشارة إلى معنى ما ورد في بعض الأدعية المأثورة: "اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء" ، ومن درك الشقاء ومن شماتة الأعداء"[١].

والجَهد بفتح الجيم بمعنى: المشقة، وأي بلاء أشق من إعجاب المرء بنفسه وبأفعاله، كيف لا وهو إحدى المهلكات على ما ورد في الحديث:

"ثلاث مهلكات: شحٌ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"[٢]، وإذ وُكل العبد إلى أعماله ولم يتداركه فضل الله تعالى ولطفه ورحمته، فقد أدركه الشقاء، "ولولا فضل الله عليكم ورحمته لبتعتم الشيطان إلا قليلاً"[٣]، وفي ذلك شماتة الأعداء، ومنهم الشيطان الذي أخبر الله عنه بقوله: "ولأضلنهم ولأمنينهم"[٤]، وقوله: "لأغوينهم" ، وقوله: "لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم"[٥] ... إلى غير ذلك مما يدل على أن غاية مناه إغواءُ ابن آدم وشقاهُ .

والدرَك بفتح الراء وسكونها التبعة.

ص: قوله: "أنشدونا للنوري:

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى　　فيبعد عني ما أقول أكاد.

فمالي جهادٌ غير أني مقصرٌ　　وعجزي عن طول الجهاد جهاد.

وإن رجائي عودةٌ منك بالرضا ..　　وإلا فحظي في المعاد بعاد.

ش : أي: حالي وشأني أني أقول كل يوم أكاد اليوم أن أبلغ الغاية من الأمل في إصلاح الحال والعمل، أي أرجو ذلك فيحال بيني وبين ما أرجوه، وما لي مجاهدةً ولا

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ٢٧٠٧.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ / ٢٣٥ وقال : غريب من حديث عطاء عن الحسن.

(٣) النساء ٨٣ جزء آية.

(٤) النساء ١١٩ جزء آية.

(٥) الأعراف ١٧.

عمل غير التقصير والعجز عن المجاهدة، فهو مجاهدتي لا غير، وهذا اعتراف منه على نفسه بالعجز والتقصير وبراءة عين رؤية الأعمال، كما هو دأب العارفين من العمال، واسناد إلى محض فضل الله تعالى ورجوع إليه بقوله: "وإن رجائي" ... إلى آخره، أي رجائي في رضاك لا في العمل، فإن صح لي ما أرجوه، فقد أدركت غاية السؤال ونهاية الأمل، وإلا فحظي والعياذ بالله في المعاد الشقاء والبعاد.

ص: قوله: "وأنشدونا لغيره:

هبني أراعيك بالأذكار ملتمسًا ٠٠ ما يبتغيه ذوو التلوين بالغير.

فكيف لي بشهود منك تحملني ٠٠ عن فتنة الوقت بل عن حجبه الأثر(١).

– قال المصنف رحمه الله تعالى– : يقول: إن طالعتُ في أفعالي ومجاهداتي ثوابك عليها، وهو الذي يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات. فكيف أطالع شهود ما يحملني عن خوف العاقبة من تغيير الأحوال والأوقات. وعن النظر إلى حركاتي ومجاهداتي، وهو الذي يحجبني عنك".

ش : معنى قوله: – هبني– أحسبني.

يقال: هب زيدًا منطلقًا بمعنى: أحسب. يتعدى إلى مفعولين، ولا يستعمل ماض ولا مستقبل في هذا المعنى.

ومعنى قوله: – أراعيك– : أراعي أمرك، وأراد بالأذكار : العبادات؛ إذ المقصود منها: ذكر الله تعالى فيها، قال الله تعالى: "أقم الصلاة لذكري"[٢].

وأشار – بذوي– التلوين– إلى أصحاب المجاهدات قبل وصولهم إلى مقام التمكين، فإن الغالب عليهم: النظر إلى الأعواض وابتغاء الثواب على الأعمال، والغير اسم بمعنى التغيير.

---

(١) هو على ألسنة المتصوفة ولم أجده إلا عند المصنف.

(٢) طه ١٤.

قال صاحب الصحاح: والغير أيضًا الاسم من قولك: غيرت الشـــيء فتغيــر، والظاهر أن الباء في قوله: - بالغير - للمصاحبة أي ملتبسين بتغيرات الأحوال في أثبــات الأعمال.

ومعنى البيت الثاني: إظهار العجز عن الظفر بما يؤمنه من الافتتان والاحتجاب برؤية الأعمال وسوء الخاتمة وتغير الأحوال.

والعياذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية بمنه وكرمه.

وقوله: - يحملني - كأنه ضمن معنى: يصوبني أو يصرفني ونحو ذلك.

والحجبة: المرة، من الحجاب، وكان معنى: حجبه الأثر: الحجبة التـــي يعقـــب الأعمال من قولهم: خرجت في أثر فلان، وأثره: أي عقيبه.

والظاهر أن المراد بالبيتين: أن غاية ما في وسعي القيام بوظائف العبودية على ما عليه غالب العمال.

وأما الفوز بالشهود وارتفاع الحجاب عن الستر الذي هو غاية المقصود والحفظ عن الفتنة والحجبة، فليس ذلك في وسعي، والذي ذكره المصنف في تفسيرهما ربما خالف هذا المعنى بعض مخالفيه.

والله تعالى أعلم.

* * *

الباب الخامس والستون

في أحوال القوم في الكلام على الناس

قال المصنف

قيل للنوري:متى يستحق الإنسان الكلام على الناس؟ قال: إذا فهم عن الله ﷻ صلح أن يفهم عباد الله،وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عاما في بلاده وعلى عباده ".

قال السري السقطي: إني أذكر مجيء الناس إليَّ فأقول: اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني، فإني لا أحب مجيئهم إليَّ ".

قال سهل بن عبد الله: أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله، والناس يتوهمون أني أكلمهم".

قال الجنيد للشبلي: نحن حبَّرنا هذا العلم تحبيرا، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ "؟!فقال:أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري ".

وقال بعض الكبار للجنيد وهو يتكلم على الناس: يا أبا القاسم، إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل؟ فقام الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرين، ثم خرج فقال: لولا أنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال {في آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم}، ما خرجت إليكم ".

وقال الجنيد: ما تكلمت على الناس حتى أشار عليَّ ثلاثون من البدلاء: إنك تصلح أن تدعو إلى الله ﷻ".

وقيل لبعض الكبار لم لا تتكلم؟! فقال: هذا علم قد أدبر وتولى، والمُقبِل على المدبر أدبر من المدبر".

قال أبو منصور البنجخيني لأبي القاسم الحكيم: "بأي نيّة أتكلم على الناس؟

فقال: لا أعلم للمعصية نية غير الترك".

واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازي أبا حفص الحداد - وكان تلميذه - في الكلام على الناس؟ فقال له أبو حفص: وما يدعوك إليه "؟ فقال أبو عثمان: الشفقة عليهم، والنصيحة لهم "؟ فقال: وما بلغ من شفقتك عليهم "؟ فقال: لو علمت أن الله يعذبني بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة، وجدت من قلبي الرضا به"، فأذن له، وشهد أبو حفص مجلسه، فلما قضى أبو عثمان كلامه قام سائل فسبق أبو عثمان فأعطاه ثوبا كان عليه، فقال أبو حفص: يا كذاب، إياك أن تتكلم على الناس وفيك هذا الشيء "، فقال أبو عثمان: وما ذاك يا أستاذ "؟ قال: أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم على نفسك بثواب السبق ثم تتلوهم ".

سمعت فارسا يقول: سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول: كنا عند الجنيد إذ مر به النوري فسلم، فقال له الجنيد: وعليك السلام يا أمير القلوب، تكلم "؟ فقال النوري: يا أبا القاسم، غششتهم فأجلسوك على المنابر، ونصحتهم فرموني في المزابل "؟! فقال الجنيد: ما رأيت قلبي أحزن منه في ذلك الوقت ". ثم خرج علينا في الجمعة الأخرى فقال: إذا رأيتم الصوفي يتكلم على الناس، فاعلموا أنه فارغ ".

وقال ابن عطاء في قوله تعالى {وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا} قال: على مقدار فهومهم، ومبلغ عقولهم ".

وقال غيره في قوله تعالى {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين}: أي: لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم، يدل عليه قوله: {بلغ ما أنزل إليك من ربك}، ولم

يقل: بلغ ما تعرَّفنا به إليك".

رأى الحسين المغازلي رويم بن محمد وهو يتكلم على الناس في الفقر فوقف عليه وقال:

وما تصنع بالسَّيفِ إذا لم تكُ قَتَّـــــالا
ألا ابتعت بما حَلَّي ت هذا السيف خلخالا

عبر بعبارته عن حال ليس هو فيها.

قال بعض الكبار: من تكلم عن غير معناه، فقد تحمر في دعواه؛ قال الله تعالى: {كمثل الحمار يحمل أسفارا}

* * *

قال الشارح

ص: قوله: قيل للنوري: متى يستحق الإنسان الكلام على الناس؟ قال: إذا فهم عن الله ﷻ صلَح أن يفهم عباد الله، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عامًا في بلاده، وعلى عباده".

ش : يجوز أن يكون مراد "النوري" رحمه الله بالفهم عن الله، حصول الفتح، والإلهام، والوصول إلى مقام التّحديث، والأفهام.

وقد يعبر عنه بعلم الوراثة أخذًا مما ورد في الحديث : "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" [1].

ويجوز أن يكون مراده بذلك تأهله للفهم من كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ ، وذلك بتبحره في الأصول والفروع، وما لابد لهما منه من سائر العلوم كالعربية، وغيرها، واطلاعه على أقاويل المفسرين، والمستنبطين للأحكام من الكتاب والسنة، وإن لم يبغ رتبة الاجتهاد فيه، وإن حمل كلامه على المجتهد، فلابد له من شروط الاجتهاد، وهي مذكورة في أصل الفقه، ومن الفقهاء من يذكرها في بعض كتب الفروع.

والظاهر من حال "النوري" رحمه الله تعالى: أن مراده هو الأول، وبالجملة فليس الكلام على الناس، والتصدي للتذكير، والوعظ، واتخاذ المواعيد العلمية بالأمر الهين، وإن استهانة الناس في وقتنا هذا؛ لعدم الوازع الديني، وانحلال الأحوال، وتراجعها إلى النقصان في هذا الزمان، ونعوذ بالله من الجور بعد الكور، ولا نخفي أن المتكلم عن الناس لا يستغني عن اتقانه لقواعد العقائد، وأصول الديانات، وكونه بحيث يمكنه حل الشبهات بالأدلة الواضحات، والانفصال عما عسى يورد عليه من سؤال، أو إشكال، وإقامة حجج تقطع شأفة أهل الأهواء، والبدع، وهذا يحتاج إلى مواد عزيزة، وعلوم كثيرة، وقد عز ذلك في زماننا هذا، وآل الحال فيه إلى ما تضمنه الخبر الصحيح.

---

(١) سبق تخريجه.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، كلما ذهب عالم ذهب بما معه، حتى إذا لم يبق عالمٌ اتخذا الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"[١] وإلى معنى آخر هذا الحديث أشار النوري بقوله: "وإذا لم يفهم عن الله، كان بلاؤه عامًا في بلاده، وعلى عباده".

ص: قوله: قال السرُّ السقطي: "إني أذكر مجيء الناس إليَّ فأقول: اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني، فإني لا أحب مجيئهم إليَّ".

ش : أي: لأنهم يشغلوني عنك، أو لأنهم لا يفهمون مرادي من الكلام، فأخشى عليهم الوقوع في الضلال بسببي، أو بسوء ظنهم في بني جنسي فيضرهم ذلك، أو يقع منهم الإخلال بالتعظيم العلم، وأهله، أو لأنهم إذا جاؤني توجه لهم على حق يلزمني القيام به، أو لأني أخاف على نفسي من الافتتان بمجيئهم، لما فيه من مظنة الرياء، والرئاسة الظاهرة، وآخر ما يخرج من رؤوس الصديقين على ما قيل حب الجاه، والرئاسة ... إلى غير ذلك من مفاسد الاجتماع بالخلق، أو لأني قد أزيغ عن الحق والعياذ بالله، فيما ألقيه عليهم من الكلام لمكان البشرية، وعدم العصمة، ويكون السبب في ذلك مجيئهم إليَّ، وكلامي لهم، فانظر في هذه الأمور الصحية التي في تصدي الإنسان للكلام على الناس، والسلامة لا يعدلها شيء، وفي دعاء السر لهم بما دعا دليل ظاهر على كمال إيمانه، حيث أحب لأخوته المسلمين ما يحبه لنفسه، وذلك لكمال شفقته عليهم، وأحب الناس إلى الله أشفقهم على عباده، ولذلك كان رسول الله ﷺ أحب العالم إلى الله تعالى؛ لأنه أكملهم شفقة على خلق الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن كمال شفقته عليهم في الآخرة؛ لنفراده من بين سائر من يقول يوم القيامة "نفسي، نفسي" بقوله: "أمتي، أمتي" - ﷺ وكرم وعظم -

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ١٠٠.

ص:قوله: قال سهل بن عبد الله: "أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله، والناس يتوهمون أني أكلمهم".

ش : أشار المصنف بذلك إلى أن: حق المتكلم على الناس أن يكون مثل هذا السيد الجليل في فنائه عن الخلق، وبقائه بالحق هكذا، وإلا فلا ؟ ! .

ص:قوله: قال الجنيد للشبلي: "نحن حبرنا هذا العلم تحبيرًا، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ. فقال: أنا أقول: وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري ؟ " .

ش : كلام الإمام أبي القاسم الجنيد ﷺ صادرًا عن مقام الغيرة على أسرار الله أن تذاع إلى من ليس أهلاً لها .

وفي حديث علي ﷺ : "كلموا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله"(١).

فقد ورد "لا تعطوا الحكمة غير أهلها، فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم" (٢).

ومن منح الجهال علمًا أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم(٣)

وجواب الشبلي صادرًا عن غلبات الأحوال، فإنه لما غلب عليه الفناء تكلم بالله، وكأنه أحال عن الله ما قاله.

وقد ورد في الحديث: "قال الله على لسان عبده: سمع الله لمن حمده" ، وإذا قال الله على لسان عبده: أنا أقول، وأنا أسمع، أو ما في الوجود إلا أنا، أو أنا الحق أو سبحاني ما أعظم شاني، فما ينبغي أن يبادر إليه بالتكذيب، والتكفير، إلا أنه مقام خطير، وكلام غير يسير، لكونه محل الالتباس على أكثر الناس.

---

(١) سبقت تخريجه.

(٢) هذا الكلام منسوب إلى أبي هريرة رفعه لنبينا ﷺ ولم أجده إلا في الأربعون الودعانية (١٤).

(٣) هذا الشعر من كلام الإمام الشافعي وكثيرًا ما كان ينشده.

ومعنى قول الله: "على لسان عبده" : إنطاقه له بـذلك، أو أمـره إيـاه أن يقولـه، فالإنطاق كما ينطق لأرباب غلبات الوجد، وليس ذلك عند المحققين من الرتب العالية، بل الرتبة العالية عندهم مقام التمكين، وإن يكون غالبًا لحاله، كما كان "الجنيد" لا مغلوبا، كما كان" الشبلي" رحمة الله عليه، والأمر كما أمر المصلي أن يقول: "سمع الله لمن حمـده" ، عند الرفع من الركوع، وكان أصل الكلام على تقدير: أن يكون كلام الله تعـالى، والعبـد حال عنه ذلك، سمعت لمن حمدني، غير أنه أوقع الظاهر موقع المضمر، كما فـي نحـو قوله: "فإذا عزمت فتوكل على الله"(١)، أصله الذي يقتضيه المقام فتوكل عليَّ، وهو معدود عن بعض البيانين من قبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة لاقتضاء المقام الـتكلم، وكـون الظاهر في حكم الغيبة بدليل غيبة الضمير الراجع إليه.

ص:قوله: "وقال بعض الكبار للجنيد وهو يتكلم على الناس: "يا أبـا القاسـم، إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانـك، وإلا فانزل؟ فقام الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرين، ثم خرج فقال: لولا أنـه بلغنـي عـن النبي ﷺ أنه قال: "في آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم". ما تكلمت عليكم".

ش : قيل الذي قال ذلك "الجنيد" هو: "أبو الحسين النوري" ، ومعنـى: "وجـد أن العالم في العلم وكونه فيه" : أن يعمل به، ويوافق فعله قوله، فإني من علم حالاً، أو مقامًا، أو غير ذلك، ووصفه لغيره، من غير أن يكون هو متصفًا به، صح أن يقال ليس هو فيما علمه، ووصفه. والذي فعله "الجنيد" ﷺ من تركه الكلام بعد سماعه، قول من قـال لـه ذلك، يظهر أن يكون من قبيل الأخذ بالأحوط احترازًا عن الوقوع في مـا لا يرضـاه الله تعالى، والدخول في الذم، بقوله تعالى: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلـون الكتاب. أفلا تعقلون" ... الآية (٢). وهذا غاية الاحتياط، والتواضع من "الجنيد" ﷺ.

---

(١) آل عمران ١٥٩:

(٢) البقـرة ٤٤.

وقد حكى عن شيخه"السري" ﷺ : أنه سئل عن الصبر، فجعل يتكلم فيه، فدبت على رجله عقرب وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة، وهو ساكن، فقيل له: لم لا نحيتها ؟ ! قال: استحيت من الله أن أتكلم في الصبر، ولم أصبر.

وأما عود "الجنيد" ﷺ إلى الكلام، فالظاهر أنه ما لم يتحقق اتصافه بما هو المعتبر عند القوم في الكلام على الناس، ولم يعد إليه، وما ذكره من الحديث إنما هو من قبيل التواضع؛ وهضم النفس، والاعتراف بالتقصير.

وهو نحو ما روى عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال في أول خطبة خطبها في ولايته: "وليتكم ولست بخيركم" ، أو كلامًا هذا معناه.

ص:قوله: "وقال الجنيد: "لم أتكلم على الناس حتى أشار عليَّ ثلاثون من البدلاء(أو الأبدال). إنك تصلح أن تدعو إلى الله ﷻ".

ش : امتناعه من الكلام على الناس إلى هذه الغاية من جملة احتياطه، واستبرائه لدينه، وهكذا ينبغي أن يكون العالم الذي يتصدى للإفتاء، والتذكير، والتعليم لا كأمثالنا من المتساهلين في الإقدام على ذلك، الخائضين لحجج المهالك.

أصلحنا الله تعالى، وسلك بنا أقوم المسالك.

وقد تقدم الكلام على معنى البدل في أوائل الكتاب.

ص: قوله: "وقيل لبعض الكبار: لم لا تتكلم ؟ ! فقال: "هذا علمٌ قد أدبر وتولَّى، والمقبل على المُدبر أدبرُ من المُدبر".

ش : أي: قد تمكن الفساد وغلب الأعراض عن الخير على أكثر الناس، بحيث يبعد قبولهم للصلاح، فالإقبال عليهم بالنصح، والموعظة، تضيع للزمان، وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر ؟ ! .

وقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "بينما نحن حول رسول الله ﷺ ، إذ ذكر الفتنة، أو ذكرت عنده، فقال: إذا رأيتم الناس مُرجت(ضُيعت)

عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك ؟ - جعلني الله فداك- فقال: إلزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة"(١).

قال الجوهري في صحاحه: "وفرجت أمانات الناس" : فسدت، وقوله ﷺ : "إذا رأيتم الناس" : كأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: الفتنة إذا رأيتم الناس كذا وكذا.

ص: قوله: قال أبو منصور البجخيني لأبي القاسم الحكيم: "بأي نية أتكلم على الناس؟ فقال: لا أعرف للمعصية نية غير الترك.".

ش : الظاهر أن أبا القاسم المذكور لم ير في أبي منصور أنه أهل للكلام على الناس، فلذلك جعل كلامه معصية، وأشار عليه بالترك، وإلا فتذكير الناس، ونصحهم من أعظم القرب عند اجتماع الشرائط، وانتفاء الموانع، قال الله تعالى: "فذكر إن نفعت الذكرى"(٢)، وقال ﷺ : "الدين النصيحة"(٣) ، وقوله: "لا أعرف للمعصية نية غير الترك" من تأكيد الذم، بما يشبه المدح، عكس قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ٠٠ بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائب(٤).

ص: قوله: "واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازي أبا حفص الحداد - وكان تلميذه - في الكلام على الناس ؟ فقال له أبو حفص: وما يدعوك إليه ؟ .

فقال أبو عثمان: الشفقة عليهم، والنصيحة لهم، فقال: وما بلغ من شفقتك عليهم؟ فقال: لو علمت أن الله يعذبني بدل جميع من آمن به، ويدخلهم الجنة، وجدت من

---

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ٣٧٨٢.

(٢) الأعلى ٩.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه عن تميم الداري ٤٥٧٥.

(٤) البيت من قصيدة النابغة الذبياني من العصر الجاهلي عنوانها "كليني لهم ، يا أميمة ، ناصب) ومطلعها :

"كليني لهم، يا أميمة ، ناصب ٠٠ وليل أقاسيه ، بطيء الكواكب

قلبي الرضا به. فأذن له، وشهد أبو حفص مجلسه، فلما قضى أبو عثمان كلامه، قام سائل فسبق أبو عثمان فأعطاه ثوبًا كان عليه، فقال أبو حفص: يا كذاب، إياك أن تتكلم على الناس، وفيك هذا الشيء، فقال أبو عثمان: وما ذاك يا أستاذ ؟ قال: أما كان فيك من النصيحة لهم، والشفقة عليهم أن تؤثرهم على نفسك بفضيلة السبق ثم تتلوهم".

ش : أي: تتبعهم في العطاء، وتكون بعدهم فيه، فلم ينكر عليه أهل الصدقة، بل صرفه على السبق بها، مع تقدم دعواه لما ادعى.

وأما استئذانه لشيخه في الكلام، فهو من لوازم المريدين، والتلامذة مع مشايخهم في كل ما يُعن لهم أن يفعلوه، ومن باب المشاورة المأمور بها.

وأما سؤال الشيخ عن الحال له على ذلك، فليظهر له وجه المصلحة في ما استأذنه فيه ليأذن له إن ظهرت له المصلحة في ذلك، وإلا منعه قيامًا بحق الشيخ للتلميذ، وحق الشيخ أن يمنع تلامذته من التصدر قبل أوانه، فإن ذلك يضرهم، ويفسد حالهم.

وأما سؤاله عما بلغ من شفقته، فلأن أبا عثمان لما أدعى الشفقة، توجهت عليه المطالبة بالحجة، إذ لو أعطى الناس بدعاويهم ؛ لادعى ناسٌ دماءَ قوم، وأموالهم، ولكن البينةّ على المدعي، واليمين على من أنكر.

وأما رضاه بأن يعذب بدل المؤمنين دون الكفار، فلأن الكفار مخلدون في النار، ومعذبون بالشقاء الدائم، والبعد المؤبد من العزيز الغفار، فلم يجز له الرضا بذلك، بخلاف حال العصاة من المؤمنين، ومن أراد خلاص أخيه المسلم، وفداه بنفسه، يرجي الخلاص له أيضًا.

ويقال : أن أبا حفص حضر مجلسه في خفية، بحيث لم يشعر بحضوره لئلا يهابَه، فيعتريه دهشته في الكلام، وإنما حضر إمدادًا له، وتقوية لحاله بحضوره، وتحقيقًا لما ادعاه، واعتبارًا لصلاحيته للكلام على الناس.

وأما إنكاره عليه بالسبق بالصدقة، ففيه نظر، وما ذكره من أمر الإيثار قد لا يوافق عليه، فقد صح ما يدل عليه أن القرب لا يؤثر بها، وهو حديث اشار به ﷺ واستئذان من عن يمينه في سَقي من على يساره، وامتناع من على يمينه ، والإيثار بسور

رسول الله ﷺ على ما صح معناه في الحديث. غير أن أبا عثمان لما ادعى الإيثار بنفسه، وفدا المؤمنين بها، توجهت مؤاخذة شيخه له بذلك.

وقد حكيت حكايات كثيرة عن القوم تدل على أنهم يرون الإيثار بالقرب.

كما حكي "السر" : أنه استقبله رجل كبير الشأن، فسلم السري عليه سلامًا ناقصًا، فقيل له: هذا رجل كبير الشأن، فقال: قد عرفته، ولكن رو عن النبي ﷺ : "أنه إذا التقى المسلمان قسمت بينهما مائة رحمة، تسعون منها لا يشبهما" فأردت أن يكون معه الأكثر ..... إلى غير ذلك من الحكايات، والأحوال التي خصوا بها، ولهم فيها مقاصد لا يعجز المصنف عن حملها على محامل صحيحة.

ص: قوله: سمعت فارسًا يقول: سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول: "كنا عند الجنيد إذ مر به النوري فسلم، فقال له الجنيد: وعليك السلام يا أمير القلوب، تكلم ؟ فقال النوري: يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك على المنابر، ونصحتهم فرموني في المزابل !! فقال الجنيد: ما رأيتُ قلبي أحزن منه في ذلك الوقت. ثم خرج علينا في الجمعة الأخرى فقال: إذا رأيتم الصوفي يتكلم على الناس فاعلموا أنه فارغ".

ش : أبو الحسين النوري من أقران الجنيد، ومات قبله بسنتين، فإنه مات خمس وتسعين ومائتين، ومات الجنيد سنة سبع وتسعين ومائتين.

قيل: وإنما نعت بأمير القلوب؛ لإشرافه عليها، وتصرفه فيها، وإخباره عن أسرارها.

وقول الجنيد له – تكلم من باب: طلب الفائدة، ولو من المثل، أو الأدنى، وعدم الاستنكاف منه، وعدم مفاتحة النوري الكلام قبل أن يشير عليه الجنيد بالكلام، يجوز أن يكون تأدبًا منه، واشتغالاً عن الكلام بما هو أهم منه عنده.

ويقال أنه لما قال للجنيد الكلام المذكور، قال الجنيد: ما غشي وما نصيحتك ؟ فقال: غشك أنك دخلت بين الله، وبين خلقه، ونصيحتي أني وكلتهم إلى ربهم.

وهذا يدل على غاية حلم الجنيد، وكمال إنصافه، وطلبه للاطلاع على الحق ليتبعه، وعلى الباطل ليجتنبه.

وما ذكره النوري في معنى غشه، ونصيحة نفسه، فيه نظر لا يخفى، والظاهر أنه كلام صادر من غلبات الأحوال.

وقول الجنيد: "ما رأيت قلبي أحزن منه – في ذلك الوقت" أيضًا من جملة إنصافه، وتواضعه، وهضمه لنفسه، واتهامه لها. وموافقته للنوري له ما قال، تواضعًا منه، وهو أعلى رتبة منه.

واعلم بأن كلامه أولى من سكوت النوري.

وقوله: ثم خرج" الظاهر أن المراد به النوري لا الجنيد.

ومعنى: قوله "فارغ" : أي غير مشغول بالله تعالى؛ إذ المشغول بالله لا يتفرغ للكلام على الناس، وفيه نظر أيضًا؛ لانتقاصه بالأنبياء عليهم السلام.

ص: قوله: وقال ابن عطاء في قوله تعالى: "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغًا"[(١)] .

قال: "على مقدار فهومهم، ومبلغ عقولهم".

ش : هذا من آداب الكلام على الناس، وهو أن يبلغ معنى الكلام عقول السامعين ليكون مفيدًا، وإلا فلا، فعلى هذا يناسب أن يكون البليغ فعيلاً من البلوغ، لا من البلاغة، ويكون بمعنى الفاعل، وقد يحتمل أن يكون بمعنى المفعول أي: تبلغه العقول.

ص: قوله: وقال غيره في قوله تعالى: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين"[(٢)]، أي: لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم.

---

(١) النساء ٦٣.

(٢) الحاقة ٤٤، ٤٥.

ش : هذا تأويل بعيد للآية؛ لإطباق المفسرين على أن معناها "لو كذب علينا"، وقال: عنا ما لم نأمره أن يقوله، وأتى بشيء من قبل نفسه، ونحو ذلك من المعاني المذكورة في كتب التفسير، وما قبل الآية يدل عليه أيضًا، وهو قوله تعالى: "وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين"[١].

وحمل النقول على ذكر المواجيد لأصحاب الرسوم، فيه بُعد نعم، لا ينبغي لأصحاب المواجيد أن يذكروها، إلا لمن يفهمها، وأصحاب الرسوم أعني: المفسرين على الظواهر لا يفهمون ذلك، فهذا المعنى في نفسه معنى صحيح، لكن حمل الآية عليه، وفهمه منها ليس بواضح.

ص: قوله: "يدل عليه قوله تعالى: "بلغ ما أنزل إليك من ربك" [٢]، ولم يقل: بلغ ما تعرفنا به إليك".

ش : أي: يدل على صحة المعنى المذكور، وهو أنه لا ينبغي ذكر المواجيد، والأسرار لغير أهلها، ولعموم الناس الذين لا يفهمونها، أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه، لا بتبليغ ما تعرف به إليه من المعارف التي خصه بها، وأطلعه عليها من غير واسطة.

ولم يرد المصنف بهذا الكلام، بيان صحة تأويل الآية المذكورة بهذا المعنى، وإنما أراد به صحة هذا المعنى في نفسه – كما ذكرناه – .

ص: قوله: "رأى الحسين المغازلي رويم بن محمد، وهو يتكلم على الناس في الفقر، فوقف عليه وقال:

وما تصنع بالسيف إذ لم تكُ قتالاً ... ألا ابتعت بما حلّيتَ هذا السيف خلخالاً؟!

عبر بعبارته عن حال ليس هو فيها".

---

(١) الحاقة ٤١ : ٤٣.

(٢) المائدة ٦٧.

حال الفقر، فإن الفقر في الظاهر هو عدم الملك لشيء من عرائق الدنيا على المشهور، وشأنه الاحتياج إلى بني جنسه.

وعند القوم هو عبارة عن انقطاع العبد عن كل علاقة سوى تعلقه بالله تعالى، فهو غني عن كل ما سواه، فكان "المغازلي" عظم أمر الفقر، ولم يثبته "لرويم" عن جلال قدره، وفي ذكر الخلخال غضاضة، وإنجاء[1] ما عليه –رضي الله عنهما جميعًا–

وقد كان دأبهم ترك المداهنة، والصدع بالحق حسبما يظهر لهمْ، والأخذ بالأحوط والأشد، وتشديد النكير على من أخل بدقيقة من دقائق الطريق؛ لبلوغهم الدرجة العليا في التحقيق، والتدقيق.

ص: قوله: قال بعض الكبار: "من تكلم عن غير معناه، فقد تحمَّر في دعواه، قال الله تعالى: "كمثل الحمار يحمل أسفارًا "[2].

ش: أي: من تكلم بظاهر العلم من غير أن يتحقق معناه، ويعمل بمقتضاه، فقد رضي لنفسه أن يكون حمارًا، فإن الله تعالى جعل مثل اليهود الذين حملوا التوراة، ثم لم يعملوا بما فيها كمثل الحمار يحمل أسفارًا، والجامع بينهما، تحمل المشقة في استصحاب ما هو أبلغ نافع مع عدم الانتفاع به، وليت الأمر يقتصر على أن يكونوا مثل الحمار، كيف، والحمار إن لم ينتفع فلا وبال عليه، ومن لم يعمل بعلمه، فعلمه وبالٌ عليه.

* * *

---

(١) من النجا وهي الخلاص من الشيء

(٢) الجمعة ٥.

الباب السادس والستون

في توقي القوم ومجاهداتهم

قال المصنف

ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار فلم يأخذ منه شيئاً؛ وقال: إنه كان يرى القدر.

قال أبو عثمان: كنا في دار أبي بكر بن أبي حنيفة مع أبي حفص، فجرى ذكر صديق غائب عنا، فقال أبو حفص: لو كان عندنا كاغد كتبنا إليه؟ فقلت: هاهنا كاغد - وكان أبو بكر قد خرج إلى السوق - فقال أبو حفص: لعل أبا بكر قد مات ولم نعلم، وصار الكاغد للورثة؟ فترك الكتاب ".

وقال أبو عثمان: كنت عند أبي حفص وبين يديه زبيب، فأخذت زبيبة ووضعتها في فمي، فأخذ بحلقي وقال: يا خائن؛ تأكل زبيبي؟ فقلت: لثقتي بزهادتك في الدنيا، وعلمي بإيثارك أخذت الزبيبة، فقال: يا جاهل، تثق بقلب لا يملكه صاحبه".

سمعت كثيراً من مشائخنا يقولون: كان الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث: إذا حج عن غيره بمال، وإذا أتى خراسان، وإذا دخل اليمن.

فقالوا: من أتى خراسان، لم يأته إلا للرفق، وليس بها مباح فيطيب مطعمه. وأما اليمن؛ ففيه طرق إلى الفسق كثيرة.

وكان أبو المغيث لا يستند، ولا ينام على جنبه، وكان يقوم الليل، وإذا غلبته عينه قعد ووضع جبينه على ركبتيه فيغفو غفوة، فقيل له: أرفق بنفسك؟ فقال: والله ما رفق الرفيق بي رفقا فرحت به؛ أما سمعت سيد المرسلين يقول: {أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل}.

قالوا: إن أبا عمرو الزجاجي أقام بمكة سنين كثيرة لم يُحْدِث في الحرم، وكان يخرج من الحرم للحدث ثم يعود إليه وهو على طهارة.

قال سمعت فارسا يقول: كان أبو عبد الله - المعروف بشكتل - لا يكلم الناس، وكان يأوي إلى الخرابات في سواد الكوفة، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات، فلقيته يوما، فتعلقت به وقلت: سألتك بالله ألا أخبرتني ما الذي منعك عن الكلام؟ فقال: "يا هذا، الكون: توَهّم في الحقيقة، ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له، والحق: تقصر عنه الأقوال دونه، فما وجه الكلام؟! وتركني ومر".

قال وسمعته يقول: سمعت الحسين المغازلي يقول: رأيت عبد الله القشاع ليلة قائما على شط دجلة وهو يقول: يا سيدي أنا عطشان، يا سيدي أنا عطشان، حتى أصبح، فلما أصبح قال: يا ويلتي، تبيح لي شيئا وتحول بيني وبينه! وتحظر علي شيئا وتخلي بيني وبينه! فأيش أصنع؟ ورجع ولم يشرب منه.

وسمعته يقول: سمعت بعض الفقراء قال: كنت سنة الهبير مع الناس، فانفلتُّ ثم رجعت، فكنت أطوف بين الجرحى، قال: فرأيت أبا محمد الجريري - وكان قد نيف على المائة - فقلت: يا شيخ، ألا تدعو فيكشف ما ترى؟ قال: قد فعلت، قال: {إني أفعل ما أشاء}. فأعدت عليه، فقال: يا أخي، ليس هذا وقت الدعاء، هذا وقت الرضا والتسليم، فقلت: ألك حاجة؟ فقال: أنا عطشان، فجئته بماء، فأخذه وأراد أن يشرب، فنظر إليَّ فقال: هؤلاء عطاش وأنا أشرب! هذا شَرَه، فرده عليَّ ومات من ساعته.

قال: وسمعته يقول: سمعت بعض أصحاب الجريري يقول: مكثت عشرين سنة لا

يخطر لي ذكر الطعام حتى يحضر، ومكثت عشرين سنة أصلي الفجر على طهور العشاء الآخرة، ومكثت عشرين سنة لا أعقد مع الله عقدا؛ مخافة أن يكذبني على لساني، ومكثت عشرين سنة لا يسمع لساني إلا من قلبي، ثم حالت الحال، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني".

معنى قوله "لا يسمع لساني إلا من قلبي": أي لا أقول إلا من حقيقة ما أنا عليه، وقوله "لا يسمع قلبي إلا من لساني"، أي حفظ عليَّ لساني، لما قال: {فبي يسمع، وبي يبصر وبي ينطق}.

قال: وسمعت بعض مشائخنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: خدمت أبا المغيث عشرين سنة، فما رأيته أسف على شيء فاته، أو طلب شيئا فقده.

وقيل: إن أبا السوداء وقف ستين وقفة، وجعفر بن محمد الخلدي وقف خمسين وقفة، وكان بعض المشايخ - وأكثر ظني: أنه أبو حمزة الخراساني - حج عشر حجج عن النبي ﷺ، وحج عن العشرة من أصحاب النبي ﷺ عشر حجج، وحج عن نفسه حجة؛ يتوسل بتلك الحجج إلى الله في قبول حجته.

* * *

قال الشارح

ش : أي: في تورعهم عن الشبه، والأصل في ذلك قوله ﷺ : "إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه" (١).

وعن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: "كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام" . والورع قبل الزهد، لأن الورع في الشبهات، والزهد في الحلال.

ص: قوله: "ورث حارث المحاسبي من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار، فلم يأخذ منه شيئًا"، وقال: إنه كان يرى القدر".

ش : الذي نقله "القشيري" : أنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم، ويروي أنه قال: لا يتوارث أهل ملتين شيء، وكأنه رأى أن القدريَّ يحتمل كونه كافرًا، فتورع عن أخذ ميراثه لذلك.

واختلاف العلماء في تكفير القدرية، وغيرهم من أهل الأهواء مشهور، والمختار أن لا يكفي أحد من أهل القبلة، وأظن أن الكلام في ذلك، وفي تفسير القدرية، وهذه النسبة قد تقدمَ في أوائل هذا الكتاب.

ص: قوله: قال أبو عثمان: "كنا في دار أبي بكر بن حنيفة مع أبي حفص، فجرى ذكر صديق غائب عنا، فقال أبو بكر: لو كان عندنا كاغدٌ كتبنا أليه. فقلت: ها هنا كاغدٌ – وكان أبو بكر قد خرج إلى السوق – فقال أبو حفص: لعل أبا بكر قد مات ولم نعلم، وصار الكاغد للورثة، فترك الكتاب".

---

(١) متفق عليه، وزوياه من طرق بألفاظ متقاربة عن النعمان بن بشير في باب الورع وترك الشبهات - رياض الصالحين

ش :قول أبي عثمان: "ها هنا كاغذ" يعني: في دار أبي بكر، وأراد بذلك باستعمال البسط كاغده، وثوقًا بما كان بينهم من الود، والصداقة، لقوله تعالى: "أو صديقكم"[1]، ولم يكن ورثته كذلك، فلذلك تورع أبو حفص عن استعمال الكاغد، وهو: الورق الذي يكتب فيه، وفي عرف المصريين "الكاغده" : الصرة التي تكون للفضة، ونحوها.

وقريب من هذه الحكاية، ما حكي عن أبي صالح حمدون: أنه كان صديق له وهو في النزع فمات الرجل، فنفث أبو صالح في السراج، فقيل له في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدهن في المسرجة له، ومن الآن صار للورثة؛ اطلبوا دهنًا غيره.

ص:قوله: وقال أبو عثمان: "كنت عند أبي حفص وبين يديه زبيبٌ، فأخذت زبيبةً ووضعتها في فمي، فأخذ بحلقي وقال: يا خائن، تأكل زبيبتي؟ فقلتُ: لثقتي بزهادتك في الدنيا، وعلمي بإيثارك أخذتُ الزبيبةَ. فقال: يا جاهل، تثق بقلب لا يملكه صاحبه؟!".

ش : في هذه الحكاية دليل على أن الشيخ ينبغي أن يبادر إلى تنبيه التلميذ على خطاه إذا أخطأ، وأن لا يسامحه إذا زل، وإن قل، ويمنعه من الرخص، فإن اللائق بحاله الأخذ بالعزائم دون الرخص، ولا شك أن التبسيط بالتصرف في مال الصديق من غير إذن صرح منه، بل اعتمادًا على قرينة الصداقة من قبيل الرخص، إذ الأصل فيه التحريم. "ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه" [2]، كما ورد في الحديث.

ولا فرق في ذلك بين القليل والكثير، حتى الحبة من القمح، لا يجوز أخذها من صبرة الغير، ومن أخذها أثم، ويلزمه ردها، وإن لم يكن لها قيمة، ولا يجوز بيعها.

وما يحكي من المشايخ من التبسيط بالتصرف في أموال أصحابهم لا يقاس حال التلميذ المبتدئ عليه، لأن تصرف المشايخ على بصيرة منهم وإذن لهم من الله تعالى.

---

(١) النور ٦١ جزء آية.

(٢) الدارقطني، السنن إلى أنس بن مالك ج٣ حديث ٢٨٨٥، والسنن الكبرى للبيهقي عن أبي حره عن عمه رقم ١١٥٤٥.

فمن ذلك ما حكي عن "عبد الله الروذباري" : أنه دخل دار بعض أصحابه فوجده غائبًا، وباب البيت له مقفل، فقال صوفي وله باب بيت مقفل اكسروا القفل، فكسروه، وأمر بجمع ما وجد في الدار والبيت، فانفذوه إلى السوق فباعوه، وعملوا بثمنه وقتًا في الدار، فحضر صاحب الدار، وجاءت امرأته بعدهم وعليها كساء، فدخلت بيتًا، ورمت بالكساء، وقالت: يا أصحابنا هذا أيضًا من جملة المتاع فبيعوه؛ فقال الزوج لها: ولم تكلفتِ هذا؛ فقالت: اسكت، مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا، ونبقى لنا شيئًا ندخره عنه.

وأخذ أبي حفص بحلق عثمان وقوله له: "يا خائن" بسبب أخذه زبيبة واحدة، ليس لبخله بها، حاشاه من ذلك، وإنما هو غاية الشفقة والتأديب، فإنه إذا شدد النكر عليه في التافه القليل، علم إنكاره عليه فيما هو أكبر منه، يكون أشد، فيوجب ذلك احترازه عن الإقدام على شيء منه – كائنًا ما كان–.

وما ذكره أبو عثمان في الاعتذار فيما فعله فوجهه واضح، غير أن الشيخ لم يقبل عذره في ذلك، وأغلظ عليه القول أيضا بقوله: "يا جاهل" تنبيهًا له، على أن القلوب تتقلب، ولذلك سمي القلب قلبًا، وقد قال الله تعالى: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه"(١)، وقال النبي ﷺ : "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء"(٢).

وإذا كان كذلك فلا وثوق به؛ إذ قد يرضى بشيء في وقت، ولا يرضى به في وقت آخر، فاقتضى الاحتياط، والورع التحرز عن مثلما ما فعله أبو عثمان ﷺ، وعن سائر المسلمين أجمعين.

ص: قوله: "سمعت كثيرًا من مشايخنا يقولون: كان الشيوخ يهجرون الفقير للثلاث: إذا حج عن غيره بمال، وإذا أتى خراسان، وإذا دخل اليمن".

---

(١) الأنفال ٢٤ جزء من آية.

(٢) أصله في الصحيح إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ج٤ رقم ٢٦٥٤.

فقالوا: "من أتى خراسان لم يأته إلا للرفق وليس بها مباح، فيطيب مطعمه، وأما اليمن: ففيه طرقٌ إلى الفسق كثيرة".

ش : هذا أيضًا من جملة الورع، وإلا فيجوز أخذ الأجرة على الحج عن الغير بالشروط المذكورة في كتب المذاهب.

فقد ذكر بعض العلماء أنه من أولى أنواع الإجارات، وأفضلها، أو كما قال لـه فيه من إعانة الأخ المسلم على أداء مثل هذه العبادة العظيمة، وفي ضمنه الفوز بزيارة البيت، والطواف به وما عسى أن يتيسر له من العمرة لنفسه مرة، أو مرات، وزيارة النبي ﷺ؛ فإن ذلك كله يقع للأجير، لا للمستأجر، فيحصل له مع الارتفاق بالأجرة التي لا شبهة في حلها هذه العبادات أيضًا.

ومع هذا كله فمبنى أمر هذه الطائفة على احتقار أمر الدنيا، وتعظيم أمر الطاعة، فاستقبحوا لذلك بذل الطاعة المعظمة لأخذ الأجرة المحقرة، ونسبوا فاعله إلى الدناءة، والرذالة، فإن تجرد الحج عن الغير من أخذ المال، فلا استقباح، ولا استرذال.

وأما "خراسان" ليس فيها مباح، فكان المراد به: أنه ليس فيها شيء مباح يمكن الاقتيات به من جنس البقول، والفواكه، بخلاف غيرها من البلاد. وكان الغالب في ذلك الوقت أن من دخل خراسان من هذه الطائفة انفتح عليه باب إقبال أهل الدنيا عليه، ويخشى على الفقير من ذلك.

وكان اليمن في ذلك الوقت أيضًا تكثر المعاصي فيها، ومن دخلها فأقل الأحوال أن يرى المنكرات، ويسكت عنها؛ لعجزه عن تغييرها، أو يصحب أهلها وفيهم العصاة، والفساق.

وقد ورد من يصحب إخوان السوء لم يسلم، ومَن لم يحفظ لسانه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يُتهم. وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ٠٠ وكل قرين بالمقارن يقتدي[١]

ص: قوله: "وكان أبو المغيث لا يستند، ولا ينام على جنبه، وكان يقوم الليل كله، وإذا غلبته عينه قعد، ووضع جبينه على ركبتيه فيغفو غفوةً. فقيل له: أرفق بنفسك، فقال: والله ما رفق بي رفقًا فكيف به" . أما سمعت سيد المرسلين يقول: "أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الأمثل فالأمثل"[٢].

ش : كان "الحسين بن منصور الحلاج" يُكنى" أبا الغيث" ، فيجوز أن يكون مراد المصنف "بأبي المغيث" هو "الحلاج" ، ويجوز أن يكون غيره.

وقوله: "يغفو غفوةً صوابه: أن يقال: يغفي إغفاءةً قال صاحب الصحاح: أغفيتُ إغفاءة: نمتُ.

قال "ابن السكيت" ولا تقل غفوت.

وقوله: "ما رفق بي .... إلى آخره" أي: ما رفق الله بي رفقًا، فكيف لي بالرفق ؟ ! وأراد بذلك أن الله كلف عباده ولم يتركهم سدى، فوجب عليهم بذل المجهود في تحصيل المقصود من التكاليف الشرعية.

وأشد الناس ابتلاءً وامتحانًا بالأحكام التكليفية وغيرها أقربهم إلى الله تعالى.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في معلقته، كما قال صاحب الكتاب النصرانية بين عرب الجاهلية وغيره، وذكر قبل هذا البيت:

ولا خيرَ في خير ترى الشر دونه ٠٠ ولا نائل يأتيك بعد التلذذ

كما قال في شرح المعلقات التسع للشيباني، وفي جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي١/ ٤٤ أن القصيدة من الطويل ومطلعها:

لخلــــوة أطلال سهمدي ٠٠ تلويح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(٢) هو في البخاري ترجمة لباب من أبوابه في كتاب "المرضي" وهو الكتاب رقم ٢٧٥ يوهو صحيح على شرط مسلم .

"والأمثل" معناه: الأقرب إلى الخير، يقال: "فلانٌ أمثل بني فلان" أي: أدناهم إلى الخير، ويجوز أن يكون المراد "بالأمثل" في الحديث المذكور: الأشبه من ذكر فيه، فالأشبه.

وكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ، وعلى أمته، ثم نسخ وجوبه عن الأمة تخفيفًا عنهم، واستمر وجوب التهجد عليه ﷺ، وهو من جملة خصائصه ﷺ، لقوله تعالى: "ومن الليل فتهجد به نافلة لك" (١)، أي: زيادة على ما كلفت به. ودأب الصالحين التحري في التأسي به ﷺ.

ولم يرد "أبو المغيث" بذكره الحديث المذكور أنه من جملة المذكورين، وإنما أراد أنه يقصد التأسي بهم في مشاق التكاليف، هذا الذي يليق بحال أمثاله.

والله أعلم.

ص: قوله: "وقيل أن أبا عمرو الزجاجي أقام بمكة سنين كثيرةً لم يُحدث في الحرم، وكان يخرج من الحرم للحدث ثم يعود إليه وهو على طهارةٍ".

ش : هذا من باب الأخذ بالأولى، والأفضل، ومراعاة الأدب مع الله تعالى في القيام بأقصى غاية الاحترام للبقاع المنسوبة إلى حرمه، كما هو دأب المتورعين الآخذين بالحزم، وعزم الأمور من عبيده، وخدمه.

ص: قوله: قال سمعت فارسًا يقول: "كان أبو عبد الله - المعروف بشكتل- لا يكلم الناس، وكان يأوى إلى الخرابات في سواد الكوفة، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات، فلقيه يومًا، فتعلقتُ به وقلتُ: سألتك بالله ألا أخبرتني ما الذي منعك من

---

(١) الإسراء ٧٩ "جزء من آية".

الكلام؟ فقال: يا هذا الكون توهمٌ في الحقيقة، ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له، والحق تقصر عنه الأقوال دونه، فما وجه الكلام ؟ وتركني ومر".

ش : القمامة: الكناسة، من قم البيت يقمه إذا كنسه، والمقمة: المكنسة.

وأراد "بالمباح" : ما أشار الحال بإباحته، كأوراق السلق التي ترمي مع كناسة البيت، وكذا نحو الكسرة من الخبز، والتمرة، والزبيبة، ونحو البقول، والسنابل ... إلى غير ذلك من الأشياء التافهة التي أعرض أصحابها عنها.

وقد اختلف العلماء في كسرة خبز ألقاها صاحبها معرض عنها، هل يملكها من أخذها ؟

وذكر من الشافعية فيها وجهين:

قال إمام الحرمين: وهذا الخلاف في زوال الملك، وما فعله إباحة للطاعم في ظاهر المذهب، لأن القرائن الظاهرة كافية في الإباحة، ويوضحه ما يؤثر عن الصالحين من التقاط السنابل.

وقوله: "سألتك بالله إلا فعلت كذا ..." : كان تقدير الكلام فيه: سألتك ألا تفعل شيئًا إلا فعل كذا.

وقوله: "فيما الحقيقة" أي: في أي شيء من الحقيقة، والمشهور سقوط الألف من ما الاستفهامية عند دخول الجار عليها، وفي نسخة موضع: "فيها الحقيقة" وليس "فيه الحقيقة" ، ومعنى هذا واضح، أي: الكلام أما في الخلق، أو في الحق.

أما الخلق: فلا حقيقة لهم؛ إذ لا وجود في الحقيقة إلا للحق، ووجود الخلق طارئ، زايل، مستعار، فهو هالك في نفسه، لا بقاء له، ولا قرار.

واما الحق: فتقصر منه العبارات، ولا تصل إليه الإشارات، فيتعين الكف عن الكلام، والسلام.

ص: قوله: "قال وسمعته يقول: سمعت الحسين المغازلي يقول: رأيت عبد الله القشاع ليلةً قائمًا على شط دجلة وهو يقول: يا سيدي أنا عطشان، يا سيدي أنا

عطشان! حتى أصبح، فلما أصبح قال: يا ويلتي، تُبيح لي شيئًا وتحول بيني وبينه، وتَخطر عليَّ شيئًا وتخلي بيني وبينه، فأيش أصنع ؟ ! ورجع ولم يشرب منه".

ش : الظاهر من حال هذا الرجل أنه كان في حال الغلبة، وأن مراده "بالعطش" ما كان عنده من الشوق، وبما أتيح له ما يجوز تناوله من الملاذ، لكن حاله يقتضي الحيلولة بينه وبينها.

ومراده "بالتخلية بينه وبين ما هو محظور عليه" : إقداره على تناوله عادةً، وإن حرم عليه شرعًا.

ص:قوله: وسمعته يقول: "سمعت بعض الفقراء يقول: كنت سنة الهبير مع الناس، فانفلتُ ثم رجعت، فكنت أطوف بين الجرحى، قال: فرأيت أبا محمد الجريري - وكان قد نيف على المائة - فقلتُ: يا شيخ، ألا تدعو فيكشف ما ترى ؟ قال: قد فعلت، قال: إني أفعل ما أشاء، فأعدت عليه، فقال: يا أخي، ليس هذا وقت الدعاء، هذا وقت التسليم والرضا، فقلت: ألك حاجة ؟ فقال: أنا عطشان، فجئته بماء، فأخذه وأراد أن يشرب، فنظر إليَّ فقال: هؤلاء عِطاشٌ وأنا أشرب! هذا شَرَهٌ، فردَّه عليَّ ومات من ساعته".

ش : "الهبير" : ما اطمأن من الأرض، و"سنة الهبير" : هي السنة التي قتلت القرامطة الحاج، "وهو سنة خمسة عشرة وثلاثمائة على ما قيل". ومنعوا الناس بعد ذلك من الحج ستةَ عشرة سنة.

وكان هذا الفقير مع من كان خَرج للحج سنة الهبير، فلما قتلوا رفقته، انفلَت منهم، أي تفلت، ثم بعد ذلك رجع إلى القتلى والجرحى، والفتنة بعد قائمة، ولذلك سأل "الجريري" الدعاء.

وقول "الجريري" : "قد قلت. فقال: إني أفعل ما أشاء" : الظاهر أنه لم يرد به المخاطبة الحقيقة، بل استحضار سره؛ لاتصاف الحق بصفة الفتى، وفعله لما يشاء: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وهي مخاطبة حالية لا مقالية.

وقوله: "ليس هذا وقت الدعاء" كأنه أراد به أن الدعاء إنما يكون قبل وقوع البلاء، فأما بعد وقوعه فما ثم إلا الصبر، والرضا، كما فعله إبراهيم وأيوب وغيرهما من الأنبياء صلى الله عليهم أجمعين.

وهذا يدل على أن المحذور، أو معظمه، كان قد وقع في تلك الواقعة، رأى "الجريري" أن التسليم والرضا، والاشتغال بذكر رب الأرض والسماء في تلك الحالة أفضل من السؤال، والدعاء لما صح في الحديث: "من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" (١)، كيف وهم يرون المبلي في البلاء يتلذذون كما يتلذذ المنعم عليه بالنعمة، ولأن البلاء إذا كان كفارةً للسيئات، أو سببًا لرفع الدرجات، كان الرضا به أولى من سؤال دفعه.

وامتناعه من شرب الماء مع شدة الحاجة إليه، يجوز أن يكون لغلبة ظنه بأن شربه لا ينجيه من الهلاك، مع قصده موافقة أصحابه في الصبر على العطش، ولئلا يحرم ما ينالهم من أجر مشقة العطش، والموت بسببه. والموافقة في الصبر قد يُستأنس له، بقوله تعالى: "فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل"(٢)، ويجوز أن يكون قد احترز بترك الشرب عن إيثار نفسه عليهم، وأن يكون قد أحب لها ما لم يحبه لهم. ومقتضى كمال الإيمان أن يحب لهم ما أحب لنفسه.

والله تعالى أعلم.

ص: قوله: قال: وسمعته يقول: سمعت بعض أصحاب الجريري يقول: "مكثت عشرين سنة لا يخطر لي ذكر الطعام حتى يحضر، ومكثت عشرين سنة أصلي الفجر على طهور العشاء الآخرة، ومكثت عشرين سنة لا أعقد مع الله عقدًا؛ مخافة أن يكذبني على لساني، ومكثت عشرين سنة لا يسمع لساني إلا من قلبي، ثم حالت الحال، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني".

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأحقاف ٣٥ "جزء آية".

معنى قوله:"لا يسمع لساني إلا من قلبي":أي لا أقول إلا من حقيقة ما أنا عليه.

وقوله:"لا يسمع قلبي إلا من لساني" : أي حُفِظَ عليَّ لساني؛ لما قال: "فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي ينطق"(١).

ش : يجوز أن يكون السبب في أنه لم يكن يخطر له ذكر الطعام عدم اهتمامه بأمر الملاذ، وما يتعلق بحظوظ النفس، فإذا حضر لم يرده، احتراز عن الاعتراض على الله في حالتي وجود الطعام، وعدمه، ويجوز أن يكون سببه وثوقه بالله تعالى، وبضمانة الأرزاق، فإنه أعلم بمصالح عباده، وأرأف بهم منهم في المنع، والإطلاق.

وأما "أنه كان يصلي الفجر بطهارة العشاء" فذلك من شدة اجتهاده في العبادات، ولاشتغاله عن النوم بلذة المناجاة، والموصلات. ويحكي نحو ذلك عن جماعة كعثمان بن عفان وتميم الداريّ من الصحابة ، وكأبي حنيفة ، وغيره.

وأمّا "أنه لم يعتقد مع الله عقدًا" فمعناه: أنه لم يركن إلى غيره بقلبه، ولم يثبت في سره وخاطره لغير الله تعالى، بل كلما خطر بباله سواه تبرأ منه، ونفاه، وذلك لالتزامه بمقتضى حالة الإعراض عما سواه، وتصريحه بذكر ذلك بلسانه، ودعواه، فلو اعتقد، ولم يقل لا يخطر لي لأن الخاطر ما لم يستقر، ولم يعتقد عليه، لا يؤاخذ العبد به، فكأنه قال: وإذا خطر لي غيره نفيت ذلك الخاطر قبل أن يصير اعتقادًا. وهكذا ينبغي أن يكون السالك الذاكر، فإن أهم الأشياء عند أهل هذا الشأن نفي الخواطر.

وأما "أنه لم يسمع لسانه إلا من قلبه معناه: أنه لم يكن يصف بلسانه إلا حال قلبه، وما لم يكن قلبه متلبسًا به من المعارف، والأحوال، والمقامات، لم يكن يذكره بلسانه.

وأما "أنه لم يسمع قلبه إلا لسانه" : فيجوز أن يريد به استغراق قلبه في محبة الله تعالى، وذكره، واستيفاء الذكر له، بحيث لا يسمع إلا الذكر من لسانه، أي: لا يعي غيره من جنس الكلام، فمعنى سماع القلب: هو وعيه. ويجوز أن يشير به، وبما قبله إلى اتفاق

(١) سبق تخريجه.

الظاهر والباطن، أي: لما امتلئ قلبي بحب ربي، وصار مستوفيا به، وأسيرًا لـه، وافقته الجوارح في ذلك، وصارت تتصرف بتصريف الله تعالى، فبه يبصر، وبه يسمع، كما أنه به يعقل، فاتحد القلب والقالب، وتواصل المطلوب والطالب.

ص: قوله: قال: وسمعت بعض أصحابنا يقول: "سمعت محمد بن سعدان يقـول: خدمتُ أبا المغيث عشرين سنة، فما رأيته أسِف على شيء فاته، أو طلب شيئًا فقده".

ش : يحتمل أن يكون السبب فيه الاستيفاء، والفناء عما سوى الله تعالى- على ما تقدم غير مرة – أو يكون ذلك لتحققه أن الله أعلم بمصالحه منه، وإنما قسم الله لـه لا يعدوه، فلا وجه للأسف على ما مضى، ولا للطلب فيما سيأتي.

ص:قوله: وقيل: "إن أبا السوداء وقف ستين وقفةً، وجعفر بن محمد الخلـوي وقف خمسين وقفةً، وكان بعض المشايخ – وأكثر ظني: أنه أبو حمزة الخراساني- حج عشر حجج عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وحج عن العشرة من أصحاب رسول الله ﷺ عشر حجج، وحج عن نفسه حجة؛ يتوسل بتلك الحجج إلى الله في قبول حجته".

ش : قصد المصنف بذكر هذه الحكايات عنهم بيان ما كانوا عليه من الاجتهاد البالغ مع ما خصهم الله تعالى به من الأحوال السَنية، والمعارف الالإلهية حثًا على التأسي بهم، والتهدي بهديهم.

حشرنا الله في زمرتهم، ونفعنا الله بركتهم.

وقوله: "ثم حج عن نفسه" : ظاهره أنه يقتضي أنه حج عن غيره أولاً، وهو ضرورة لم يحج حجة الإسلام بعد، وهذا لا يصح على مذهب الشافعي ﷺ، فيجوز أن يكون مراده: أنه حج عن نفسه تطوعًا أو الفرض على قول من يجوز تأخيره، وتوسل بحجه عن النبي ﷺ ، وعن أصحابه ﷺ لما علم وتقرر في النفوس أن يكون له حاجة إلى الملك يتوسل بخواصه، وبالتقرب إليهم إلى قضائها.

والله أعلم.

* * *

الباب السابع والستون

في لطائف اللّه للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف

قال المصنف

قال أبو سعيد الخراز: بينا أنا عشية عرفة، قطعني قرب الله ﷻ عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسأل الله تعالى، فسمعت هاتفا يقول: أبعد وجود الله تسأل الله غير الله ".

قال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين، فكنت أمشي، فوقعت في بئر فنازعتني نفسي بأن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس بالبئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطم رأس هذا البئر من الطريق، فأتوا بقصب وبارية، وهممت أن أصيح، ثم قلت: يا من هو أقرب إليّ منهما، وسكت حتى طموا ومضوا، فإذا أنا بشيء قد دلى برجليه في البئر وهو يقول: تعلق بي، فتعلقت به، فإذا هو سبع، وإذا هاتف يهتف بي ويقول لي: يا أبا حمزة، هذا حسن، نجيناك من التلف في البئر بالسبع ". قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو الوليد السقاء: قدَّمَ إليّ أصحابنا يوماً لبنا، فقلت: هذا يضرني، فلما كان يوم من الأيام دعوت الله تعالى فقلت: اللهم اغفر لي؛ فإنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين، فسمعت هاتفا يهتف بي ويقول: ولا ليلة اللبن؟! "

قال أبو سعيد الخراز: كنت في البادية، فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعاما، فقلت: ليس هذا من فعل المتوكلين، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله صبرا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول:

ويزعــمُ أنه مِنّــــا قريب ... وأنا لا نُضيّع من أتانا

ويسألنا القوى عجزا وضعفا ... كأنا لا نراه ولا يـــرانا

ويشهد لصحة حال الهاتف، ما حدثنا محمد بن محمد بن محمود قال: حا نصر بن زكريا، حا عمار بن الحسن، حا سلمة بن الفضل، حا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت، لما أرادوا غسل النبي ﷺ اختلفوا فيه: فقالوا: والله ما ندري، أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم السِّنَة حتى ما بقي منهم أحد إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه".

* * *

قال الشارح

ش : أي في لطفه تعالى بهم، وذلك بتنبيههم على ما هو الأولى والأفضل، إذ يبعد في حقهم ارتكاب المعاصي بفعل المحرمات، أو ترك الواجبات؛ فإن ذلك شأن العوام، ومبني الشريعة في أوامرها ونواهيها كلها على التنبيه لجميع المكلفين على فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات، وللخواص على ما هو الأفضل من الأحوال والمقامات، وعلى الاحتراز عن الغفلات والفترات، والالتفات إلى غير الحق من سائر الكائنات.

ص: قوله: "قال أبو سعيد الخراز: بينا أنا عشية عرفة، قطعني قرب الله عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسأل الله، فسمعت هاتفًا يقول: أبعد وجود الله تعالى تسأل اللهَ غيَّر الله".

ش : أي كما جردت ظاهري عن لباس العادة جردت باطن عن كل خاطر، وكل إرادة، فتفرد سرِي بالتوجه إلى الله وقربه الذي هو أصل كل سعادة، وشغلني ذلك عن سؤال شيء آخر سواه كالجنة وما فيها من نعيم أو نوال، ومن حصل له الأعلى وهو قرب الله تعالى بغير سؤال كيف يطلب الأدني بسؤال ؟

وأيضًا فالسؤال على قدر همة السائل.

ومن وجد الله تعالى فهمته أعلى من أن يكون له رغبة في غير الله تعالى ليسأله إياه.

ثم أخبر أن نفسه نازعته كما هو عادتها، وقالت لسره: إن كنت قد استغنيت بما خصصت به من القرب والوصال، فأنا محتاجة إلى رحمة الله تعالى طامعة في الجنة وما فيها من النعيم والنوال، خائفةً من النار وما فيها من الخزي والعذاب والنكال، فلما هم بموافقة النفس وتسويلها لطلب ما ينبغي طلبه من الفوز بالنعيم والأمن ممما يخاف لا إعراضًا عن الحق بل شفقة على النفس استدركته الألطاف بهاتف هتف له بما ذكر فصانه من الانحراف والانصراف؛ إذ السؤال في حال الشهود وتحقق الوجود حجاب، فإنه لا معنى لسؤال الحاصل، وسؤال غيره اشتغال به عن الحاصل.

كما تكرر تقريره في غير هذا الباب.

ص: قوله: "قال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين، فكنت أمشي، فوقعت في بئر، فنازعتني نفسي بأن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعالى حتى نطم رأس هذه البئر من الطريق، فأتوا بقصب وبارية[1] ، فهممت أن أصيح، ثم قلت: يا من هو أقرب إليّ منه، وسكتُّ حتى طموا ومضوا فإذا أنا بشيء قد دلّى رجليه في البئر وهو يقول: تعلق بي، فتعلقت به، فإذا هو سبع، وإذا هاتف يهتف ويقول: يا أبا حمزة: هذا حسنٌ نجيّناك من التلف في البئر بالسبع".

ش :قد اعترض بعضهم على ترك الاستغاثة في مثل هذه الحالة، وكذلك على ترك الصياح وإعلام مَن همّ بالطم وأطال في ذلك المقالة، وقال: هذا خلاف الشرع؛ إذ كان يجب عليه التوصل إلى إنقاذ نفسه من الهلاك، فإذا ترك ذلك مع القدرة عليه عصى.

وأظن الشيخ جمال الدين بن الجوزي رحمه الله تعالى : ذكر ذلك في كتابه الذي صنعه في أمثال هذه المؤاخذات على جماعة من هذه الطائفة، وسماه : " تلبيس إبليس" ويمكن الاعتذار عما فعله أبو حمزة من ترك الاستغاثة، بأن له في ذلك أسوة حسنة بخليل الرحمن إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم، : حيث قال لجبريل عليه السلام "أما إليك فلا" عند قوله له وهو في الهواء: "ألك حاجة" [2]، على ما هو المشهور من قصته.

وللقوم في مثل هذه الأحوال مقاصد صحيحة تخفي على أكثر الناس لا سيما أهل الظاهر من الفقهاء الجامدين.

والأحوط في هذا الباب أن تسلم لهم أحوالهم، ويحسن الظن بهم رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) القصب عروق من الخشب يسقف بها البئر أو البيت والبارية ما يوضع فوقها ليسكن المرء من طمها بالتراب. وهو يشبه الحصير.

(٢) سبقت الإشارة إليه.

وقد يقال: إن الله تعالى لما خصهم بمقام القرب منه والالتجاء إليه بغير واسطة كان عدولهم عن الالتجاء إلى الله تعالى في الملمات إلى التعلق بالأسباب والاستعانة بالمخلوقات من باب الإعراض عن القوي القادر، والإقبال على الضعيف العاجز في طلب الحاجات، وذلك إن لم يكن ممتنعًا ينبغي أن يكون خلاف الأولى عند أرباب العقول وأصحاب النقول في فروع الشريعة وأصول الديانات.

ص: قوله: "قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو الوليد السقاء: قدّم إلىّ أصحابنا لبنًا يومًا، فقلت: ذا يضرّني، فلما كان يوم من الأيام دعوت الله تعالى، فقلت: اللهم اغفر لي فإنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين، فسمعت هاتفًا يهتف بي، ويقول: ولا يوم اللبن ؟ .

ش : يعني نسبتُه الضر إلى اللبن، فإن اعتقاد الضر والنفع لغير الله تعالى نوع من الشرك الخفي، والاحتراز عن ذلك يصعب على أكثر الناس.

ولذلك روى عن النبي ﷺ أنه قال: "الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء"(١).

وإنه ليسير على من يسرّه الله تعالى، فلذلك يؤاخذ به الخواص، وقد يسامح به العوام.

فلما ادعى من ذكره المصنف في دعاية البراءة من الشرك، سمع الهاتف المذكور ليكون الاستدراك عليه بذلك لطفًا له ولأمثاله من الصالحين رضي الله عنهم أجمعين.

ص: قوله: "قال أبو سعيد الخراز: كنت في البادية أمشي، فنالني جوع شديد، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله طعامًا، فقلت: ليس هذا من فعل المتوكلين، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله صبرًا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفًا يقول:

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، إلى ابن عباس ج٣ ص ٢٦.

ويزعـــم أنه منـــا قريب ‥ وإنا لا نضـــيّع من أتانا

ويسألنا القوي عجزًا وضعفًا كأنا لا نــــراه ولا يرانا(١)

ش : مطالبة النفس له بالسؤال من جملة مكرها عند القوم، فإن في سؤال الطعـام استنادًا إلى الطعام، واعتقادًا لكونه هو الذي يُذهب ألم الجوع ويحفظ مادة الحياة.

وهذا ينافي التوكل الذي هو في الرتبة العالية.

ولأهل الخصوص من المتوكلين، ولأن ترك السؤال أليق بحال أهـل الشـهود والوصال، فلما يئست النفس من مكرها له بسؤال الطعام فتحت عليه بـاب مكـرٍ آخـر، وسولت له سؤال الصبر، وقصدت قطعه عن الحق باشتغاله بالسؤال، فلم يتنبه لهذا المكر وهم بموافقتها، فأدركه اللطف الإلهي بإسماعه قول الهاتف المذكور.

وقوله: "ويسألنا القوي عجزًا وضعفًا، أي: ويسألنا أن نقويه ونصـبره لعجـزه وضعفه.

فقوله: "عجزًا وضعفًا" علة لسؤاله الصبر.

وقوله: "لا يرانا" أي ببصيرته لا ببصره.

ص: قوله: "ويشهد بصحة حال الهاتف، إما حدثنا محمد بن محمد بن محمـود، قال: حدثنا نصر بن زكريا، قال: حدثنا عمار بن الحسين، قال: حدثنا سلمة بن الفضـل، قال: حدثني محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عـن أبيـه عـن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما أرادوا غسل النبي ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري أنجرد

---

(١) الشعر لأبي سعيد الخراز والمشهور عنه.

ويزعم أنه مـــنا قريب ‥ وإنا لا نضيّع من أتـــانا

ويسألنا بالفتن جهدًا وصبرًا ‥ كأنا لا نراه ولا يـــرانا

وفي البداية والنهاية "ويسألنا القربين" وهو أظهر، البداية والنهاية ج١٤ أحداث ٢٧٧هـ ومن توفى فيها من الإيمان ص ٦٢٧.

رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه، قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم السنة حتى ما منهم من رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت، لا يدرون مَن هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه" [1]] ".

ش : لما ذكر المصنف الحكايات التي فيها الهاتف استشعر عليه أن ينكر عليه أمر الهاتف، فاستشهدي على صحته بالحديث المذكور، وهذا الحديث في سنن أبي داود وفيه: "فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصُه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم" ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: "لوّ استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله الإنسان"[2].

وأخرج ابن ماجه قول عائشة : "لو استقبلت من أمري" ... الحديث، وفي إسناده – محمد بن إسحق بن يسار – وللمحدثين فيه مقال.

وروى " أنه لما مات رسول الله ﷺ سمعوا صوتًا ولم يروا أحدًا يقول: السلام عليكم يا أهل هذا البيت ورحمة الله وبركاته إن في الله عزاء من كل مصيبة، ودركًا من كل فائت، وخلفًا من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حُرمي الثواب"[3].

ففي هذين الحديثين ما يستأنس به لصحة أمر الهاتف ووقوعه، وليس القول به وإثباته مخالفًا لقاعدة من قواعد الشريعة ليتوقف فيه.

والله تعالى أعلم.

* * *

(١) أبو داود، السنن إلى عائشة ج٣ رقم ٣١٤١.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى إلى عائشة ج٣ رقم ٦٦٢١.

(٣) البيهقي، السنن إلى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وروى معناه من وجه آخر عن جعفر عن أبيه عن جابر، ومن وجه آخر عن أنس بن مالك، وفي أسانيده ضعف ج٤ رقم ٧٠٩١.

الباب الثامن والستون

تنبيهه إياهم بالفراسات

قال المصنف

قال أبو العباس بن المهتدي: كنت في البادية، فرأيت رجلا يمشي بين يدي حافي القدم، حاسر الرأس، ليس معه ركوة، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل ما لهذا طهارة ولا صلاة؟ قال: فالتفت إلى فقال: {يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}، قال: فسقطت مغشيا علي، قال: فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤية التي نظرت بها إليه، فبينا أنا أمشي في بعض الطريق، فإذا هو بين يدي، فلما رأيته هبته وتوقفت، فالتفت إليَّ ثم قرأ: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات}، قال: ثم غاب فما رأيته بعد ذلك "، أو كما قال.

سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: قال لي أبو الحسن المزين: دخلت البادية وحدي على التجريد، فلما بلغت العمق قعدت على شفير البركة، فحدثتني نفسي بقطعها البادية على التجريد، ودخلها شيء من العجب، فإذا أنا بالكتاني - أو غيره؛ الشك مني - من وراء البركة، فناداني: يا حجام، إلى كم تحدث نفسك نفسك بالأباطيل؟!

ويروى أنه قال له: يا حجام، احفظ قلبك، ولا تحدث نفسك بالأباطيل ".

وقال ذو النون: رأيت فتى عليه أطمار رثة، فتقذرته نفسي وشهد له قلبي بالولاية، فبقيت بين نفسي وقلبي أتفكر، فاطلع الفتى على سري، فنظر إليَّ فقال: يا ذا النون، لا تبصرني لكي ترى خلقي، وإنما الدر داخل الصدف، ثم ولى وهو يقول:

تهت على أهل ذا الزمان فما ... أرفع منهم لواحـــد رأسـا

ذاك لأني فتى أخـــو فطن   أعرف نفسي وأعرف الناسا

فصرت حـــراً مملكا مالكا   مُدَرَّعاً بالقنـــوع لباسا

ويشهد لصحة الفراسة: ما حدثنا أحمد بن علي قال: حا ثواب بن يزيد الموصلي، حا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حا أبو صالح كاتب الليث، حا معاوية بن صالح، عن راشد بن سعيد، عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله}.

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "تنبيهه إياهم بالفراسات" (١).

ش : الأصل في الفراسة قوله تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين"(٢) وذكر في تفسير المتوسمين أنهم المتفرسون.

وفي الحديث : "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " (٣).

وفي رواية: " فإنها لا تخطئ" وكل من كان إيمانه أكمل كانت فراسته أصح؛ لأن الإيمان نور الله في قلب المؤمن.

ص: قوله: "قال أبو العباس بن المهتدي: كنت في البادية، فرأيت رجلاً يمشي بين يدي حافي القدم، حاسر الرأس، ليس معه ركوة، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل؟ ما لهذا طهارة، ولا صلاة، قال: فالتفت إليّ فقال: "يعلم ما في أنفسكم فاحذروه"(٤)، فسقطت مغشيًا عليّ، فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤيا التي نظرت بها إليه، فبينما أنا أمشي في بعض الطريق، فإذا هو بين يدي، فلما رأيته هبته وتوقفت، فالتفت إليّ ثم قرأ : "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات"(٥)، قال: ثم غاب عني فما رأيته بعد ذلك.

أو كما قال. " .

---

(١) ما بين القوسين ذكره المصنف كما في المطبوعة وأغفله الشارح .

(٢) الحجر ٧٥.

(٣) الترمذي السنن، إلى أبي سعيد الخدري ج٥ رقم ٣١٢٧ وقال: حديث غريب.

(٤) البقرة ٢٣٥ جزء آية.

(٥) الشورى ٢٥ جزء آية.

ش :قوله:"الرؤيا" في الأكثر يراد بها: رؤيا النائم، وقد جاءت بمعنى الرؤية، وفسر بها قوله تعالى: "وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس"[١] ، على قول: إذ الرؤيا في النوم لا تكون سببًا لافتتان الناس بها، "والدخول في البادية بغير ركوة" قد يكون للوثـــوق بأجر الله تعالى على عادته معه في الوصول إلى الماء عند الحاجة إليـــه للطهـــارة، وإلا فطريق القوم يقتضي استصحاب الركوة في السفر.

وقد اتخذها رسول الله ﷺ كما ورد في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "بينـــا رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة؛ إذ جهش الناس نحوه : أي أسرعوا نحوه.

والأصل فيه: البكاء كالصبي يلتزم بالأم ،ويسرع إليها عند البكاء، قال: فقال رسول الله ﷺ : "ما لكم" ، قالوا: يا رسول الله: ما نجد ماء نشرب ولا نتوضأ إلا ما بين يـــديك، فوضع يده في الركوة، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه، مثل العيون، قال: فتوضأ القوم منه، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشر مائة، وذلك في غـــزوة الحديبية [٢].

وروى القشيري بإسناده عن الفرغاني أنه قال: كان إبراهيم الخواص مجردًا في التوكل يدقق فيه، وكان لا يفارقه إبرة وخيوط، وركوة، ومقراض، فقيل له: يا أبا إســـحق: لم تحمل هذا؟ وأنت تمتنع من كل شيء ؟ فقال: مثل هذا لا ينقض التوكل؛ لأن لله تعـــالى علينا فرائض، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد، فربما تخرق ثوبه، فإذا لم يكن معـــه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد عليه صلاته، وإذا لم يكن معه ركوة تُفسد عليه طهارتـــه، وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة وخيوط فاتهمه في صلاته، وبكلام "إبراهيم الخواص" هذا يظهر وجه إنكار "ابو العباس" على الشخص الذي رآه بين يديه في البادية، وكان حـــال ذلك الشخص أعلى، فقال له ما قال؛ ليعلم أن ترك الاعتراض على هذه الطائفـــة أحـــوط وأولى.

---

(١) الاسراء ٦٠

(٢) البخاري إلى جابر بن عبد الله ج٤ وقم ٣٥٧٦.

ص: قوله: "سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: قال لي أبو الحسن المزين: دخلت البادية وحدي على التجريد، فلما بلغت العمق قعدتُ على شفير البركة، فحدثتني نفسي بقطعها البادية على التجريد، ودخلها شيء من العجب، فإذا أنا بالكتاني أو غيره؛ - الشك مني - من وراء البركة، فناداني الكتاني: يا حجام إلى كم تحدث نفسك بالأباطيل.

[ويروى أنه قال له: يا حجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك بالأباطيل] " .

ش : قال الجوهري في صحاحه: العمق بضم العين وفتح الميم منزل بطريق مكة، والعامة يقولون : العمق ، وقصد القوم بدخول البادية بغير زاد، ولا راحلة، ولا رفيق، بل على قدم التجريد المحض رياضة النفس، لأنها ما دامت مع الأسباب، فهي متعلقة بها متكلة عليها، فلا يصح لها التوكل، كما ينبغي إلا بالتجريد، فأراد المزين إصلاح نفسه، ورياضتها، وتصحيح توكلها، فجاءته بالمكر من طريق آخر، وأرادت إفساد عمله بذلك وهو العُجب، وما أكثر دسائسها، وأخبث وساوسها، وأنكى خُدَعها، وهواجسها.

نسأل الله تعالى السلامة من شرها، والخلاص من مكرها.

اللهم ألهمنا رشدنا، وأعذنا من شرور أنفسنا بمنك، وكرمك يا رب العالمين.

ونداء الكتاني له بقوله: "يا حجام" من باب الإغلاظ في القول زجرًا له عن ذلك الخاطر المفسد لحاله، وعمله.

ويرى أنه قال له: "يا حجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك بالأباطيل" ومن الباطل رؤية العامل العمل لنفسه، إذ الحقُ رؤيته من الله تعالى، وبتوفيقه، ورؤية المنة لله تعالى في ذلك.

ص: قوله: "وقال ذو النون: رأيت فتىً عليه أطمار رثّة، فتقذّرته نفسي، وشهد له قلبي بالولاية، فبقيتُ بين نفسي وقلبي أتفكر، فاطلع الفتى على ما في سري، فنظر إليّ وقال يا ذا النون:

لا تُبصري لكي ترى خِلقي ٠٠ فإنما الدر داخل الصدف"[١].

ش : أي لا تنظر إلى ظاهر لبستي ورثاثة هيئتي، واعتبر باطن أمري، واكشف خبري، وخُبري، ليظهر لك أني مثل الدُر الثمين داخل الصدف المَهين، وهو مثل قول الشاعر، وينسب إلى الشافعي، ولكن فيه مبالغة يبعُد صدور مثلها عن الشافعي ﷺ. أعني قوله:

عليّ ثياب لو تُباع جميعها ٠٠بفلس لكان الفلس منهن أكثرا.

وفيهن نفسٌ لو تُقاسُ ببعضها ٠٠جميع الورى كانت أعز وأكبرا[٢]

ولَما ترّدده بين النفس والقلب فلأن شأنهما في الأكثر التدافع، كلما قبلَه القلب ردته النفس، وبالعكس.

ص: قوله: "ثم ولّى وهو يقول:

تهت على أهلِ ذا الزمان فما ٠٠ أرفع منهم لواحدٍ رأسا.

ذاك لأني فتىً أخو فطن ٠٠ أعرف نفسي وأعرف الناسا.

فصرت حرًا مملكًا ملكا مدرّعا بالقنوعِ لباسا.

ش : التيه: الكبر.

يقال: تاه يتيه تيهًا وهو أتيهُ الناس.

---

(١) في كتاب حلية الاولياء وطبقات الاصفياء حديث رقم ١٥٦٣٣-يروي صاحب الحلية بسنده إلى أن قال: عن طاهر المقدسي قال: خرجت من عسقلان أريد غزة في طلب البدلاء، فإذا أنا بفتىً عليه أطمار رثة ماراً على ساحل البحر قال: فكأني لم أعبأ به فالتفت إلي، فقال:

لا تأ عني بأن ترى خلقي فإنما الدُرُ داخل الصَّدفِ

علمي جديدٌ وثلبي خَلقٌ و منتهى اللبْسِ منتهى الصدف

(٢) في معجم لآلئ الشعر العربي نسبة هذين البيتين للشافعي ومناسبتهما أنه دخل المسجد وكان غريبًا فلم يهتم به أحد وصلى الجميع وخرجوا وتركوه.

وقوله: "أرفع منهم لواحد رأسًا": أصل الكلام أرفع لواحد منهم، فقدم الجار والمجرور الذي كان صفة للنكرة فصار حالاً عن المجرور متقدمًا عليه عند من يجوّز تقديمه عليه.

والفِطن: جمع فطنة.

والقنوع: فسره الجوهري بالسؤال والتذلل للمسألة.

ونقل عن بعض أهل أنه قد يكون بمعنى: الرضي، يعني به القناعة، فالقنوع على هذا من الأضداد، والذي يناسب ما نحن فيه أن يكون بمعنى القناعة والرضي.

ويقال: أدرع الرجل لبس درعه من الحديد.

قال الشاعر:

إن تلقَ عمروا فقد لاقيت مُدرعــا ٠٠وليس من همه إبل ولا شاء[1]

وأدَّرعت المرأة: لبست درعها وهو قميصها، ودرّعتها أنا تدريعًا.

وقول الناظم: "مدّرعًا" يستقيم الوزن فيه، والمعنى أيضًا بقراءته بتشديد الدال وتخفيف الراء، وبالعكس.

ومضمون الأبيات: أني لخترت لنفسي من الدنيا وملابسها وملاذها هذا القدر النافد اليسير، وقنعت من ذلك بالقليل الحقير، لأستغني عن الحاجة إلى الناس، لأني أعرف نفسي، وأعرف أنها لم تُخلق لكي أكون عبدًا للناس، بل لكي أكون عبدًا لله تعالى، وأعرف الناس أنهم لا ينفعون أحدًا، ولا يضرونه إلا بشيء أراده الله تعالى، فصيرتُ حرًا عن رقهم، وتمحضت عبوديتي لله تعالى بعد أن كنتُ عبدًا مشتركًا، فملكّني الله تعالى ملكًا كبيرًا، وصرتُ بذلك ملكًا جليلاً خطيرًا، وتدرعتُ بالقناعة التي هي الحياة الطيبة، وتلبستُ بها مدى الأيام.

---

(١) ما تحت يدي من المراجع قد خلت من نسبة هذا الشعر إلى قائله. انظر الصحاح في اللغة للجوهري.

فقلت بلسان حالي: "على الدنيا وما فيها السلام".

ص: قوله: "ويشهد بصحة الفراسة ما حدثنا أحمد بن علي قال: حدثنا ثواب بن يزيد الموصلي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثنا معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد، عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى ينظر الله" (١).

ش: أي بنور الإيمان الذي جعله الله في قلبه.

يحكي أن الجنيد كان يتكلم على الناس فوقف عليه غلام نصراني متنكرًا، وقال: أيها الشيخ: ما معنى قول رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

وقد فسر الهروي في "منازله" التفرس باستئناس حكم الغيب من غير استدلال بشاهد، ولا اعتبار بتجربة.

قال بعض من شرح كلامه إذا وهب الله سبحانه للعبد نورًا في قلبه كشف له ما لم يكشف لغيره بغير قياس على شيء، ولا تجربة لأمثاله، بل بخاطر صحيح خلقه الله، لا يكذب، أو بنور كاشف لا يخطئ، كما جرى لعمر بن الخطاب ﷺ في قوله: "يا سارية الجبل" (٢).

وقال القشيري: الفراسة خاطر يهجم على القلب، فينفي ما يضاده.

ونقل عن أبي سعيد الخراز أنه قال: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق، ويكون مواد علمه من الحق فلا سهو ولا غفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبد.

قال القشيري: وقوله: "نظر بنور الحق" : يعني بنور خصه به الحق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هذا الأثر ذكره الرازي، التفسير ج٢١ ص ٤٣٣ وفي القشيرية حاشية ج١ ص ٥٨٩.

وقال أبو سعيد الخراز أيضًا: المستنبط من ملاحظة الغيب أبدا، ولا يغيب عنه، ولا يخفى عليه شيء، وهو قوله تعالى: "لعلمه الذين يستنبطونه منهم" (١).

والمتوسم: وهو الذي يعرف الوسم، وهو العارف بما في سويداء القلب بالاستدلال والعلامات، قال الله تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين" (٢)، أي العارفين بالعلامات التي يبديها على الفريقين من أوليائه وأعدائه، والمتفرس من ينظر بنور الله وهي سواطع أنوار لمعت في قلبه، فأدرك بها المعاني، وهو من خواص الإيمان، والذين هم أكثر منه حظًا.

الربانيون الذين قال الله تعالى فيهم: "كونوا ربانيين" (٣) : يعني عُلماء حكماء متخلقين بأخلاق الحق ﷻ ، وهم فارغون عن الخلق والنظر إليهم والاشتغال بهم، وقد تقدم شيء من حكايات القوم في فراساتهم.

ومنها ما حكيَ عن الجنيد أنه ذكر له شاب يتكلم على ضمائر الناس لا يخطئ فراسته، فاجتمع به وسألة عن حاله، فقال له الشاب: اضمر في نفسك شيئًا، فقال الجنيد: قد أضمرت، فقال الشاب للجنيد: أضمرت كيت وكيت، فقال له الجنيد: لا ، فقال له الشاب: اضمر ثانية، فقال: أضمرت، فقال له : أضمرت كيت وكيت، فقال الجنيد: لا، فقال له: أضمر ثالثة، وقال له الجنيد مثل ذلك، فقال الشاب: هذا عجب أنت صدوق وأنا أعرف قلبي، فقال له الجنيد: صدقت في الأولى والثانية والثالثة، ولكني أردت أن أمتحن خاطرك هل يتغير ؟ ، وقول الجنيد كل مرة: لا ليس بكذب، وإنما هو عدول إلى المعاريض كأنه قال: لا يكفيني هذا في الامتحان.

والله تعالى أعلم.

* * *

(١) النساء ٨٣ جزء آية.

(٢) الحجر ٧٥.

(٣) آل عمران ٧٩ جزء آية.

الباب التاسع والستون

تنبيهه إياهم بالخواطر

قال المصنف

قال أبو بكر بن مجاهد المقرىء: قدم أبو عمرو بن العلاء يوما ليصلي بالناس - وما كان يؤم فيقدم اضطرارا -، فلما تقدم قال للناس: استووا "، فغشي عليه فلم يفق إلا بالغد، فقيل له في ذلك؟ فقال: وقت ما قلت لكم استووا، وقع في قلبي خاطر من الله تعالى كأنه يقول لي: {يا عبدي، هل استويت لي قط طرفة عين حتى تقول لخلقي استووا} ؟

قال الجنيد: مرضت مَرْضَةً، فسألتَ اللهُ أن يعافيني، فقيل لي في سِرِّي: {لا تدخل بيني وبين نفسك}.

قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: سمعت بعض الكبراء يقول: ربما أغفو غفوة، فأنادى: {أتنام عني؟! إن نمت عني لأضربنّك بالسياط}.

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "في تنبيهه إياهم بالخواطر" (١) .

ش : تقدم الكلام على الخواطر وعلى أقسامها، وهي أربعة على المشهور على ما مضى.

وقد اصطلح بعضهم على تسمية ما كان من الله تعالى خاطرًا، وما كان من الملك إلهامًا، وما كان من النفس هاجسًا، وما كان من الشيطان وسواسًا. وقد تقدم الفرق بينهما.

قال القشيري: وقيل كل خاطر من المَلك فربما يوافقه صاحبه، وربما يخالفه، فأما خاطر يكون من الحق ﷻ فلا يحصل خلافٌ من العبد له.

ص: قوله: "قال أبو بكر بن مجاهد المقري، قدم أبو عمرو بن العلاء يومًا ليصلي بالناس وما كان يؤم فتقدميي اضطرارًا، وقال للناس: استووا، فغشي عليه، فلم يفق حتى الغد، فقيل له في ذلك، فقال وقتما قلت لكم استووا، وقع في قلبي خاطر من الله تعالى كأنه يقول لي: يا عبدي، هل استويت لي طرفة عين حتى تقول لخلقي استووا".

ش : الظاهر ممن حاله هذا الذي حكاه المصنف، أن امتناعه من الإمامة أيضًا كان لشدة احترازه، وخوفه من التقصير في القيام بحق الإمامة.

فقد ورد أن" الأئمة ضمناء، والمؤذنون أمناء".

وقال: من فضل الأذان على الإمامة:-الأمين أحسن حالاً من الضمين.

ويحكي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان كلما أراد أن يدخل المسجد أمسك لحيته وبكي كثيرًا، فقيل له في ذلك فقال: [الصلاة أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان"(٢). فأنا خائف

(١) ما بين القوسين ذكره المصنف في المطبوعة وأغفله الشارح.
(٢) الأحزاب ٧٢ جزء آية.

من التقصير في أدائها كيف وقد حملت مع ذلك أمانة الإمامة، فتضاعف الحمل والثقل عليّ، وكيف لا أبكي ؟ !

والذي حصل لأبي عمرو ﷺ من باب الفهم بالحال فإنه فهم من قوله: "استووا" أي هو طلب الاستواء في الوقوف استواء الاقامة في الأحوال لغلبة ذلك عليه، وهو من جنس فهم الشبلي حيث سمع قائلاً يقول: الخيار عشرة بدانق فصاح وقال: إذا كان الخيار عشرة بدانق فكيف الشرار.

ص: قوله: "قال الجنيد: مرضت مرضة فسألت الله أن يعافيني، فقيل لي في سري لا تدخل بيني وبين نفسك".

ش : أي: لأن نفسك ملك لي اشتريتها منك لقوله تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" [١]، فما هي لك فلا تدخل بيني وبين ما هو لي لا لك؛ إذ لا اعتراض على المالك إذا تصرف في ملكه كيف شاء.

ص: قوله: "سمعت بعض أصحابنا يقول: سمعت محمد بن سعدان يقول: سمعت بعض الكبار يقول: ربما أغفو غفوة فأنادي: أتنام عني؟ إن نمت عني لأضربنك بالسياط".

ش : تقدم عن ابن السكيت أنه يقال في اللغة الصحيحة: أغفيت، ولا يقال: غفوت، والمراد بالنداء والمخاطبة المذكورة في قوله: "لا تدخل بيني وبين نفسك" ونحوه: خواطر يخلقها الله تعالى في أسرار عباده المخلصين المحبين، فإن العبد إذا تمكنت منه محبة الله تعالى، واستولت على قلبه امتلاءً منه ويصير كأنه يشاهده ويشافهه، بل لا يشاهد سواه، ولا يخاطب إلا إياه، ولا يسمع إلا كلامه، وما به ناداه أو ناجاه، ويبعد من خال مثله أن ينام أو يفارقه القلق، والأرق مدى الليالي والأيام.

عجبًا للمحب كيف ينام، وكل نوم على المحب حرام.

---

(١) التوبة : ١١١ جزء آية .

والظاهر أن التوعد بضربه بالسياط المراد به: ضربه بسياط القطيعة بعد أن استوفى بالحب، والقرب جميعه.

* * *

الباب السبعون

تنبيهه إياهم في الرؤيا

قال المصنف

قال: سمعت أبا بكر محمد بن غالب يقول: سمعت محمد بن خفيف يقول: سمعت أبا بكر محمد بن علي الكتاني يقول: رأيت رسول الله ﷺ في عادتي - فكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى النبي ﷺ كل ليلة اثنين وخميس، فيسأله مسائل، فيجيبه عنها -، قال: فرأيته قد أقبل علي ومعه أربعة نفر، فقال لي: {يا أبا بكر أتعرف من هذا}؟ قلت: نعم، هو أبو بكر! ثم قال لي: {أتعرف هذا}؟ قلت: نعم، هو عمر! ثم قال: {أتعرف هذا}؟ قلت نعم، هو عثمان! ثم قال لي: {أتعرف هذا الرابع}: فتوقفت ولم أجب، فأعاد علي ثانيا، فتوقفت، فأعاد علي ثالثا، فتوقفت؛ وكان في قلبي منه غيرة، قال: فجمع كفه وأشار بها إليَّ، ثم بسطها وضرب بها صدري، وقال لي: {يا أبا بكر قل: هذا علي بن أبي طالب}، فقلت يا رسول الله هذا علي بن أبي طالب، قال: فآخى عليه السلام بيني وبين علي رضي الله عنه، قال: ثم أخذ علي رضي الله عنه بيدي وقال لي: يا أبا بكر قم حتى تخرج إلى الصفا، فخرجت معه إلى الصفا، وكنت نائما في حجرتي فاستيقظت فإذا أنا على الصفا ↑

قال: سمعت منصور بن عبد الله قال: سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبي شيء من الفاقة، فتقدمت إلى القبر وسلمت على النبي ﷺ وعلى ضجيعيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قلت: يا رسول الله، بي فاقة، وأنا ضيفك الليلة؟ ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر فإذا أنا بالنبي عليه السلام جاءني، ودفع إلي رغيفا، فأكلت نصفه، فانتبهت، فإذا في يدي نصف الرغيف!

قال يوسف بن الحسين: كان عندنا شاب من أهل الإرادة، أقبل على الحديث وقصر في قراءة القرآن، فأتي في منامه فقيل له: إن لم تكن بي جافيا، فلم هجرت كتابي؟ أما تدبرت ما فيه من لطيف خطابي؟

يشهد لصحة الرؤيا، ما حدثنا علي بن الحسن بن أحمد السرخسي إمام جامعها، حا أبو الوليد محمد بن إدريس السلمي، حا سويد، حا محمد بن عمرو بن صالح بن مسعود الكلاعي، عن الحسن البصري قال: دخلت مسجد البصرة، فإذا رهط من أصحابنا جلوس فجلست إليهم، فإذا هم يذكرون رجلا يغتابونه، فنهيتهم عن ذكره، وحدثتهم بأحاديث في الغيبة بلغتني عن رسول الله ﷺ، وعن عيسى بن مريم عليه السلام، فأمسك القوم وأخذوا في حديث آخر، ثم عرض ذكر ذلك الرجل فتناولوه وتناولته معهم، فانصرفوا إلى رحالهم وانصرفت إلى رحلي، فنمت، فأتاني آت في منامي أسود في يده طبق من خلاف، وعليه قطعة من لحم خنزير، فقال لي: كل؟ قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير! قال: كل؟ قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير! قال: كل؟ قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير، هذا حرام! قال: لتأكلنه؟ فأبيت عليه، ففك لحيي ووضعها في فمي، فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدي، فجعلت أخاف أن ألقيها وأكره أن أسترطها، فاستيقظت على تلك الحال، فوالله لقد لبثت ثلاثين يوما وثلاثين ليلة ما ينفعني طعام أطعمه ولا شراب أشربه، إلا وجدت طعمها في فمي وريحها في منخري!

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "في تنبيهه إياهم في الرؤيا" .

ش : الأصل في الرؤيا قوله ﷺ : "الرؤيا الصالحة: جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة " (١).

قيل: الوجه في هذه النسبة أن مدة نبوة نبينا ﷺ كانت ثلاثا وعشرين سنة، وكان الوحي يأتيه في الرؤيا مدة ستة أشهر منها، ثم أوحي إليه في اليقظة، وإذا جعلت ثلاثًا وعشرين سنة أنصافًا صارت ستة وأربعين جزءًا، جزء منها هو مدة وحيه ﷺ في الرؤيا.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى : "لهم البشرى في الحياة الدنيا"(٢)، أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له.

وجاء أيضًا الرؤيا الصالحة عاجل بشرى المؤمن ... إلى غير ذلك من الأخبار.

وأمر الرؤيا متفق عليه بين سائر أهل الملل.

ورؤيا الأنبياء – عليهم السلام– وحي، فمن ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: "إني أرى في المنام أني أذبحك" (٣).

ورؤيا النبي ﷺ دخول مكة، وتصديق الله تعالى لها في قوله: "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق" (٤).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ٦٩٨٩.

(٢) يونس ٦٤ جزء آية.

(٣) الصافات ١٠٢ جزء آية.

(٤) الفتح ٢٧ جزء آية.

ورؤيا يوسف الصديق عليه السلام ... إلى غير ذلك.

ص: قوله: "سمعت محمد بن غالب يقول: سمعت محمد بن حنيف يقول: سمعت أبا بكر محمد بن علي الكتاني يقول: [رأيت رسول الله ﷺ في عادتي – وكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى النبي عليه السلام كل ليلة اثنين وخميس، فيسأله مسائل فيجيبه عنها – قال: فرأيته قد أقبل ومعه أربعة نفر، فقال لي: يا أبا بكر أتعرف هذا ؟ .

قلت: نعم، هو أبو بكر.

ثم قال لي: أتعرف هذا ؟

قلت: نعم، هو عمر..

ثم قال لي: أتعرف هذا ؟

قلت: نعم، هو عثمان.

ثم قال لي: أتعرف هذا الرابع ؟ .

فوقفت فلم أجبه فأعاد عليّ ثانيًا، فوقفت، فأعاد عليّ ثالثًا، فوقفت، وكان في قلبي منه غيرة، قال: فجمع كفه فأشار بها إليّ، ثم بسطها، وضرب بها صدري، وقال لي: يا أبا بكر، قل: هذا عليّ .

فقلت: يا رسول الله: هذا علي بن أبي طالب ؟ قال: فآخى ﷺ بيني وبين علي رضي الله عنه ، قال: ثم أخذ عليّ رضي الله عنه بيدي وقال لي: يا أبا بكر، قم حتى نخرج إلى الصفا، فخرجت معه وكنت نائمًا في حجرتي، فاستيقظت، فإذا أنا على الصفا "] " .

ش : قيل: سبب توقفه في عليّ رضي الله عنه أنه كان استشكل أمر ما جرى بينه وبين عائشة وسائر الصحابة رضي الله عنهم من القتال والفتن، وكان يقول: عليّ رضي الله عنه سيد الفتيان، والفتوة مقتضاها الإيثار، فلو آثر غيره بأمر الخلافة كما فعل ولده الحسن رضي الله عنهما تسكينًا للفتن الثائرة، وحقنًا للدماء، وحفظًا للنفوس الطاهرة لكان أولى.

وقوله: "وكان في قلبي منه غيرة، أي: كنت أغار عليه من كونه رضـي بمـا جرى.

وقد ضبط في بعض النسخ.

قوله: غرة " بالباء المفتوحة، ثاني الحروف لا بالياء آخذها، بمعنـى الغبـار، أي: بهذا السبب، فأراد ﷺ أن يزيل ذلك الغبار بمؤاخاته بينهما.

والله تعالى أعلم.

على أن الجواب عما استشكله الكتاني رحمه الله تعالى واضح، فإن عليًا ﷺ لم يَقدِم على ما أقدم من القتال إلا لأن اجتهاده أدى إلى وجوب ذلك، أو أولويته، والذي ينبغي أن يعتقد فيما جرى بين الصحابة ﷺ من الاختلاف أن ذلك كله صادر عن اجتهاد منـهم وإذا أصاب المجتهد فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، فكل منهم مأجور غير مأزور.

قال إمام الحرمين بعد ذكره : – معنى ما ذكرناه من حمل أمـرهم ﷺ علـى الاجتهاد. ولم يذهب أحد من المحصلين إلى تخطئة عليّ ﷺ في اجتهاده ؛ أو كما قـال: يعني في منازعة معاوية له في أمر الخلافة.

ص: قوله: "سمعت منصور بن عبد الله قال: سمعت ابن الجلاء يقـول: دخلـت مدينة الرسول ﷺ وبي شيء من الفاقة، فتقدمت إلى القبر فسـلمت علـى النبـي ﷺ وعلى ضجيعَيه أبي بكر وعمر ﷺ ، ثم قلت: يا رسول الله بي فاقة، وأنا ضيفك الليلة، ثم تنحيتُ ونمت بين القبر والمنبر، فإذا أنا بالنبي ﷺ جاءني ودفع إليّ رغيف خبـز، فأكلت نصفه، فانتبهت ، فإذا في يدي نصف الرغيف".

ش : ذكر في تتمة هذه الحكاية أن ابن الجلاء عاش بعد ذلك أربعين سنة لم يحتج فيها إلى طعام الدنيا ولا إلى شرابها ببركة تلك الأكلة، وذلك لما جاء في الحديث : ["مـن

رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي" [(١)، والظاهر أن ما آتاه به النبي ﷺ من طعام الجنة، ومن أكل طعام الجنة استغنى عن طعام الدنيا.

وأورد السلمي هذه الحكاية في طبقات الصوفية عن أبي الخير الأقطع، وفيها: دليلة على أن التوسل به ﷺ في الحاجات بعد وفاته كالتوسل به ﷺ في حال حياته، وأن علمه ﷺ بعد موته كعلمه في حياته.

وقد روى الحافظ أبو القاسم الأصبهاني صاحب كتاب "الترغيب والترهيب" بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" من صلى عليَّ في يوم الجمعة، وليلة الجمعة مائة من الصلاة قضى الله له مائةً حاجة سبعين من حوائج الآخرة، وثلاثين من حوائج الدنيا، ووكل الله بذلك ملكًا يدخله على قبري كما تدخل عليكم الهداي،إن علمي بعد موتي كعلمي في الحياة".

وهذا وأمثاله من الأخبار ترد على هؤلاء المبتدعة الذين نبعوا في زماننا ومنعوا من التوسل برسول الله ﷺ بعد وفاته.

وقد جمع بعضهم كلامًا يتضمن نفي علمه ﷺ بعد الوفاة.

ونقل عن طائفة منهم: التفرقة بين حال حياته ووفاته، فقال: والتفريق بين الحياة والوفاة كان ثابتًا عند الصحابة، فلهذا استسقى أمير المؤمنين عمر بالعباس، قال: ولولا هذا التفريق الواضح عندهم لما عدل عمر رضي الله عنه مع جلالته وكونه كان خليفة راشداً،و كان يشاور أيضًا عن قبر رسول الله ﷺ إلى غيره هذا لفظ المبتدع الجاهل الذي قامت البينة عليه بأشياء من هذا القبيل، وعزر على ذلك التعزير البالغ بالحبس، والضرب والنفي وغير ذلك في شهور، سنة خمس وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المحروسة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١١١) رقم ٣٠٣٥٩

وهذا الكلام من التفرقة بين الحالتين، والاستناد فيه إلى استسقاء عمر بالعباس ﷺ ليس له، وإنما هو لشيخه، فإنه لما أظهر القول بنفي التوسل برسول الله ﷺ من سنين أورد عليه حديث الاستسقاء ففزع إلى التفرقة المذكورة، ولا متسبب له في الحديث المذكور، فإن عمر ﷺ إنما قصد أن يتقدم العباس ﷺ ويباشر الدعاء بنفسه، وهذا لا يتصور حصوله من غير الحي، وأما التوسل برسول الله ﷺ فلا نسلم أن عمر تركه بعد موته ﷺ وتقديمه العباس ليدعو للناس لا ينفي جواز توسله به ﷺ مع ذلك، وهذا القول الشنيع، والرأي السخيف الذي أخذ به هؤلاء المبتدعة من التحاقه ﷺ بعد موته بالعدم. (حاشاه من ذلك) يلزمه أن لا يقال: إنه رسول الله اليوم، وهو قول بعض الضلال.

قال أبو محمد بن حزم في كتابه الذي صنفه في " الملل والنحل" حديث فرقة من المبتدعة تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ليس هو اليوم رسول الله، لكنه كان رسول الله، ثم قال: وهذه مقالة خبيثة مخالفة لله ﷻ ولرسوله ﷺ.

ولما عليه جميع أهل الإسلام منذ كان أهل الإسلام إلى يوم القيامة.

قال: وإنما حملهم على هذا الرأي الخبيث قولهم الآخر الخبيث: أن الروح عَرَض، والعرض يفنى أبدًا، ويحدث ولا يبقى وقتين.

قال: فروح رسول الله ﷺ عند هؤلاء قد فني وبطل ولا روح له الآ عند الله تعالى، وأما جسده ففي قبره موات، فبطلت نبوته ورسالته بموته عندهم.

نعوذ بالله من هذا القول، فإنه كُفر صُراح لا تردد فيه، ويكفي في بطلان هذا القول الفاحش الفظيع، إنه مخالف لما أمر الله ﷻ به ورسوله ﷺ واتفق عليه أهل الإسلام من الآذان في الجوامع والصوامع، وأبواب المساجد جهارًا في شرق الأرض وغربها كل يوم خمس مرات بأعلى أصواتهم، وقد قرنه الله ﷻ بذكر: "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله" وكان يجب على قولهم أن يقال: "وأشهد أن محمدا كان رسول الله" وكذلك كان يجب أن يقول: من يأتي بالشهادتين للدخول في الإسلام وقد

قال الله تعالى: "ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك" [١]، وقال: "يوم يجمع الله الرسل" [٢]، وقال: "وجئ بالنبيين والشهداء" [٣]، فسماهم الله تعالى بعد موتهم، وفي القيامة رسلاً ونبيين، والأصل الحقيقة.

وكذلك أجمع المسلمون، وجاء به النص: أن كل مصلٍ فرضاً ،أو نفلاً يقول في تشهده : "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" ، ولو كان بعد موته في حكم العدم لما صحت هذه المخاطبة.

هذا معنى كلام ابن حزم، ثم أورد على نفسه سؤالاً وهو: أنه كيف يكون الميت رسول الله، وإنما الرسول هو الذي يخاطب عن الله تعالى بالرسالة ؟ .

فأجاب بما حاصله أن الرسالة رتبة ثبتت له ﷺ لا يحطه عنها شيء أصلاً، ولا يسقط عنه هذا الاسم أبدًا، أي: فليس لفظ الرسول كسائر المشتقات التي اختلف في كونها حقيقة في مَن قام به معنى المشتق منه فيما مضى، ثم انقضى، والصحيح أنها ليست بحقيقةٍ فيه، إذ لو كان لفظ "الرسول" كذلك وجب أن لا يكون رسول الله إلا ما دام يكلم الناس، فإذا سكت، أو نام، أو أكل، لم يكن رسولا.

قال ابن حزم: وهذا حُمق مشوب بكفر وخلاف للإجماع.

نعوذ بالله من الخذلان.

قال: وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بأن لله تعالى ملائكة يبلغونه منا السلام، وأنه من رآه في المنام فقد رآه حقاً، أي: وهذا يبطل قول من ألحقه ﷺ بالعدم في العلم وغيره.

قال: فإن قالوا: أتقولون أن عمر أمير المؤمنين اليوم، وعثمان كذلك.

---

(١) النساء ١٦٤ جزء آية.

(٢) المائدة ١٠٩ جزء آية.

(٣) الزمر ٦٩ جزء آية.

قلنا: لا.

وبين الأمرين فرق واضح، وهو أني الإجماع قد صح بأنه لا يكــون أميــرًا إلا من الائتمار لأمره واجب، وليس هذا لأحد بعد موته إلا لرسول الله ﷺ، ولو كــان أحــد ممن ذكرنا أمير المؤمنين بعد موته لما حل للمسلمين تقديم خليفة بعده، كما لم يحــل لهــم ذلك في حياته.

وهكذا صح عن عمر ﷺ أنه قال لابنه: "إذا مــت فكفنــي، واحملنــي علــى سريري وأتِ إلى باب عائشة، فقل: عمر يستأذن ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست بأمير المؤمنين حينئذٍ" ... أو كلامًا هذا معناه.

فصح أن بين الأمرين فرقًا لانحا، فإن قالوا: قد قال الله ﷻ: "ولكم نصف مــا ترك أزواجكم" [١] ، نسماهن أزراجًا بعد موتهن، ولا خلاف في أنها ليست له زوجًا بعــد موتها، لأنه يتزوج أختها.

وخامسة فالجواب على ما قاله ابن حزم: أن النص إذا صح دليل على خروجــه عن ظاهره صرنا إلى حكم الدليل، يعني كما في لفظ "الأزواج"، ولم يجز أن يخــرج مــن أجل ذلك عن ظاهر ما لم يأت فيه دليل يحيل ذلك عن ظاهره، بل يبقى على ظاهره، ومما يدل على أنه ﷺ بعد الموت في حكم الأحياء من الفروع.

إن إمام الحرمين حكي وجهين فيما خلفه ﷺ من المال:

أحدهما: أنه باق على ملكه ينفق منه على أهله، كما كان ينفق في حياته.

قال: وهذا هو الصحيح.

والثاني: أن سبيل ما خلفه سبيل الصدقات، كيف لا وهو سيد الشهداء ؟ وأفضل منهم بلا خلاف.

---

(١) النساء ١٢ جزء آية.

وقد قال الله تعالى فيهم:" ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله"[1] الآية. فهو أولى بذلك.

وإنما أطلت النفس في هذه المسئلة وإن كانت في غاية الوضوح لقرب العهد بهذيان من أظهر الخلاف فيها، وأفسد به عقائد خلق كثير من العوام، فلذلك استطردت في هذا المقام مما يتعلق بهذه المسألة.

هذا المقدار اليسير من الكلام، وللمقال فيها مجال واسع.

لكن إشباع القول في ذلك خارج عما نحن بصدده في هذا الكتاب.

ص: قوله: "وقال يوسف بن الحسين، كان عندنا شاب من أهل الإرادة، أقبل على الحديث، وقصّر في قراءة القرآن، فأتى في منامه فقيل له:

إن لم تكن بي جافي .. فلم جفوت كتابي

أما تدبرت ما فيه .. من لطيف خطابي"

ش : أي: جفاؤك لكتابي دليل على أنك جفوتني.

وقوله: جافي من باب الوقف على المنصوب المنوّن بإسقاط التنوين لا بإبداله ألفا ، وذلك لغة في الوقف على المنون.

ص: قوله: "يشهد بصحة ذلك أي: بصحة أمر الرؤيا ما حدثنا علي بن الحسن بن أحمد السرخسي إمام جامعها، قال: حدثنا أبو الوليد محمد بن إدريس السلمي، قال: حدثنا سويد، قال: حدثنا محمد بن عمر بن صالح بن مسعود الكلاعي، عن الحسن البصري، قال: دخلت مسجد البصرة، فإذا رهط من أصحابنا جلوس، فجلست إليهم، فإذا هم يذكرون رجلاً يغتابونه، فنهيتهم عن ذكره، وحدثتهم بأحاديث في الغيبة بلغتني عن رسول الله ﷺ، وعن عيسى بن مريم عليه السلام، فأمسك القوم، وأخذوا في حديث آخر، ثم

---

(١) آل عمران ١٦٩ – ١٧٠.

عرض ذكر ذلك الرجل، فتناولوه، وتناولت معهم، فانصرفوا إلى رحالهم، وانصرفتُ إلى رحلي، فنمت، فأتاني آتٍ في منامي أسود، وفي يده طبق من خلاف عليه قطعة من لحم خنزير، فقال: كُل، قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير، قال: كُل، قلت: لا آكل، هذا لحم خنزير، هذا حرام، قال: لتأكلنَّه، فأبيت عليه، ففك لحيي وقال بها في فمي، فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدي، فجعلت أخاف أن ألقيها، وأكره أن استرطها، فاستيقظت على ذلك الحال، فوالله لقد لبثت ثلاثين يومًا وثلاثين ليلة ما يطعمني طعام أطعمه، ولا شراب أشربه إلا وجدتُ طعمها في فمي وريحها في منخري".

ش : الظاهر أن قوله: "طبق من خلاف" : المراد به من الشجر المعروف بشجر الخلاف، وقد يكون إشارة إلى أنّ ما ارتكبه خلاف الشرع، ويجوز أن يراد " بالخلاف" أنه من شجر مختلف.

فقد ذكر الجوهري ذلك في بيت أنشده وفيه لفظ " الخلاف".

وقد جاء في الكتاب العزيز ما يقتضي أن " الغيبة " مثل أكل لحم المغتاب ميتًا، قال الله تعالى:"ولا يغتب بعضكم بعضًا.أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه" (١).

وفي سنن أبي داود عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم " (٢).

وقوله: "وقال بها" أي : ألقاها في فمي، وكثيرًا ما يُستعمل، بمعنى:أشار ورمى.

وقوله: "استرطها" بالسين المهملة، أي: ابتلعها.

وفي المثل: "لا تكن حلوًا فتُسترط، ولا مرًّا فتعفى".

يقال:"أعفيت الشيء" إذا أزلته من فيك لمرارته.

* * *

(١) الحجرات ١٢ جزء آية.

(٢) رواه أبو داود في سننه عن أنس بن مالك ٤٨٧٨.

الباب الحادي والسبعون

في لطائف الحق بهم وغيرته عليهم

قال المصنف

دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتي سببا غير أني عُرِضَت عليَّ الجنة، فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار علي فعاتبني، فله العتبى".

قال الجنيد: دخلت على سري السقطي، فرأيت عنده خزف كوز مكسور، فقلت: ما هذا؟ قال: جاءتني الصبية البارحة بكوز فيه ماء، فقالت لي: يا أبت، هذا الكوز معلق ههنا فإذا برد فأشربه، فإنها ليلة غمة، فغلبتني عيني، فرأيت جارية من أحسن الجواري دخلت علي، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، وضربت بيدها إلى الكوز فانكسر، وهو الذي ترى. فما زال الخزف مكانه لم يحركه حتى ستره الغبار!!

قال المزين: أقمت في بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئا، فأضافني رجل في منزله، فقدم إليّ تمرا وخبزا، فلم أقدر على أكله، فلما كان الليل اشتهيته، فأخذت نواة أعالج بها فتح فمي، فضربت النواة سني، فقالت صبية من البيت: يا أبي، كم يأكل ضيفنا الليلة؟ فقلت: يا سيدي، جوع سبعة أيام ثم تنغص عليّ! وعزتك لا ذقته.

قال أحمد بن السمين: كنت أمشي في طريق مكة، فإذا أنا برجل يصيح: أغثني يا رجل، الله الله، قلت: مالك؟ مالك؟ قال: خذ مني هذه الدراهم؛ فإني ما أقدر أن أذكر الله وهي معي، فأخذتها منه، فصاح لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهما.

لحبشي الأقطع: ما كان سببه قطع يدك؟ قال: كنت في جبل لكام أى

لبنان، ومعي رفيق لي، فجاء رجل من بعض السلاطين ومعه دنانير يفرقها، فناولني منها دينارا، فمددت إليه ظهر كفي فوضع عليها دينارا، فقلبته يدي في حجر رفيقي وقمت، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصا، فأخذوني فقطعوا يدي!

يشهد لهذا المعنى، ما حدثنا به أحمد بن حيان التميمي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، حا قتيبة بن سعيد، حا يعقوب بن عبد الرحمن الاسكندراني، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، أن النبي ﷺ قال: {إن الله تعالى ليحمي عبده من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مرضاكم}

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "في لطائف الحق بهم وغيرته عليهم".

ش : الغيرة قد وردت في حق الله تعالى، وهي من الصفات السمعية التي لولا ورود السمع بها لما اقتضى العقل وصفه تعالى بها.

وفي الحديث لا أحد أغير من الله ، ولغيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا ينبغي أن يُفهم من الغيرة التي تُطلق في حق الله تعالى ما يُفهم من غيرة الخلق، بل ما يليق بجلاله، تعالى لحفظ العبد ومنعه من كل ما يقطعهُ عن الله تعالى لمحبته إياه؛ فإن الغيرة تستلزم معنى المنع ونحو ذلك إذا كان ناشئًا عن المحبة.

ص: قوله: "دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، وقالوا: ما حالك ؟ .

قالت: والله ما أعرف لعلتي سببًا غير أني عُرضتْ عليّ الجنةُ، فملت بقلبي إليها، فأحسب أن مولاي غار عليّ فعاتبني، فله العتبى".

ش : أي: لما كانت الجنة غيرَ الله تعالى، والميل إلى غير الله ميل عن الله لا محالة غار عليها الحق لميلها إلى الجنة، فعاتبها وعاقبها بما أحل بها من الألم مؤاخذة لها بالشكوى والسقم.

- **والعتبى**- اسم من الإعتاب، وهو: الإرضاء، وإزالة العَتب من قولك: عتب فلان فأعتبتُه، أي: أزلت عَتَبه، فالهمزة للسلب.

ومؤاخذتها على ميلها إلى الجنة: من باب مؤاخذة الخواص والمقربين بما لا يؤاخَذ به غيرهم بناءً على أن – حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ص: قوله: "قال الجنيد: دخلت على السري السقطي فرأيت عنده خزف كوز مكسور، فقلت: ما هذا ؟ .

قال: جاءتني الصبية البارحة بكوز فيه ماء، فقالت: يا أبتاه، هذا الكوز معلق ها هنا، إذا برد فاشربه، فإنها ليلة غَمّة، فغلبتني عيني فرأيت جارية من أحسن الجواري دخلت عليّ، فقلت لمن أنت ؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان،

وضربت بيدها إلى الكوز فانكسر، وهو الذي ترى، فما زال الخزف مكانه لم يحركه حتى سترد الغبار مكانه" .

ش فقال: غمّ يومنا: فهو يوم غم إذا كان يأخذ بالنفس من شدة الحرّ، وليلة غمّ أيضا أي غامة.

قال الجوهري: وصف بالمصدر كما يقول: ماء غور.

وروى أبو عبيدة عن أبي زيد ليلة غمى مثال: كسلى، وليلة غمة أيضًا.

وفي هذه الحكاية دليل على أن مبنى أمر هذه الطائفة لا سيما في ابتداء السلوك على ترك مشتهيات النفس، ومخالفة هواها.

والجارية التي يراها في منامه كانت حوراء من جملة الحور العين.

ورتبة السريّ وإن كانت أجل من الالتفات إلى كل ما يُعد من الحظوظ التي من جملتها : الحور، فقد يظهر عليه وعلى أمثاله ممن يُقتدى بهم أشياء من هذا الجنس ليكون ذلك لطفًا بالنسبة إلى الأتباع والمقتدين، وفيه إشارة إلى أن الحوراء إذا كانت لا ترضى بصحبة من يشرب الماء المبرد، فكيف ترضى بصحبة من يرتكب المعاصي ؟ أو كيف يرضي الرب تعالى بقرب مَن في قلبه غيرة.

وأما ترك الخزف في مكانه فليكون تذكرة وعبرة مستمرة للناظرين، وزاجرًا له ولغيره عن السكون إلى شيء من حظوظ النفس ومرافقتها.

ص:قوله: "قال المزين: أقمت بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئًا، فأضافني رحل في بعض المنازل، فقدم إليّ خبزًا وتمرًا، فلم أقدر على أكله، فلما كان الليل استهيته، فأخذت نواة أعالج بها فتح فمي، فضربت النواة سني، فقالت صبية من البيت: يا أبي كم يأكل ضيفنا الليلة ؟ فقلت: يا سيدي: جعت سبعة أيام ثم تنغص عليّ، وعزتك لا ذقته !! " .

ش :وجه الغيرة في هذه الحكاية أنه لما اشتهى الطعام منع منه لئلا يتناوله بحكم الشهوة؛ إذ شأن هذه الطائفة أن لا يكون تناولهم للطعام لقضاء الشهوة بل لسكون النفس، وتركها منازعة السّر والتشويش عليه، كالكلب إذا نبح وقصد التعرّض بالعض والأذى

يشغل بعظمة ترمي إليه، فيتناوله بذلك وللتقوى به على العبادة، وكذا كل ما يصدر عنهم مما ظاهره أنه فعل مباح كالنوم والتنزه، وغير ذلك لهم فيها نيات صالحة تنقله عن الإباحة إلى الندب، ولهذا قيل : لا يفعل العالم مباحا قط لتمكنه من جعله بالنيّة مندوبا إليه.

ص: **قوله: "قال أحمد السمين: كنت أمشي في طريق مكة، فإذا برجل يصيح أغثني يا رجل، الله، الله .**

قلت: مالك ؟

قال: خذ مني هذه الدراهم، فإني لا أقدر أن أذكر الله تعالى وهي معي، فأخذتها منه، وصاح: لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهمًا " .

ش :أي: إذا كان هذا القدر اليسير يشوش عليهم الحال، فما ظنك بالكثير من الأموال، وسبب التشويش والمنع من ذكر الله تعالى كما ينبغي اشتغال السّر به وبتدبيره، وربما خاف عليه التلف وقطع الطريق عليه بسببه، ونحو ذلك من العوارض المتوقعة لأصحاب الأموال.

وأيضًا : فالمجرد أقرب إلى صحة التوكل من الذي معه شيء من الدنيا لاحتمال اتكاله على ما معه، بل هو الظاهر من حال أكثر الناس.

ص: **قوله: "قيل لأبي الخير الأقطع، ما كان سبب قطع يدك ؟ قال: كنت في جبال لكام – أو لبنان – ومعي رفيق لي، فجاء رجل من بعض السلاطين ومعه دنانير يفرقها، فناولني منها دينارًا، فمددت إليه ظهر كفي، فوضع عليها دينارًا، فقلبت يدي في حجر رفيقي وقمت، فلما كان بعد ساعة إذا أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصًا، فأخذوني فقطعوا يدي".**

ش :قال الجوهري اللكام بالتشديد: جبل بالشام، قال: ولبنان جبل.

ومعنى قوله: "فجاء رجل من بعض السلاطين" : أنه جاء من عند بعض السلاطين، وأخذه الدينار على ظهر كفه كأنه لعدم اكتراثه له، ومع هذا فقد جرى عليه ما جرى.

وهذا شأن الخواص يؤاخذون بما لا يؤاخذ به غيرهم لشدة الغيرة عليهم.

قال بعضهم في هذه الحكاية إذا كان هذا عقوبة من مد يده إلى شيء يسير من الدنيا، فكيف يكون عقوبة من شغل قلبه بها.

ص: قوله: "يشهد لهذا المعنى ما حدثنا به أحمد بن حيان التميمي، أنبأنا إسحق بن إبراهيم بن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندراني عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد: [أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله ليحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم"] (١) .

ش : هذا الحديث يبين أن معنى الغيرة من الله تعالى هو حمايته لعباده عما يشغلهم عنه.

* *

(١) الحديث في المستدرك بألفاظ متقاربة عن أبي سعيد الخدري كتاب الأطعمة ص ٢٩٣.

الباب الثاني والسبعون

لطائفه بهم فيما يحملهم

قال المصنف

سمعت فارسا يقول: سمعت أبا الحسن العلوي تلميذ إبراهيم الخواص يقول: رأيت الخواص بالدينور في جامعها، وهو جالس في وسطه، والثلج يقع عليه، فأدركني الإشفاق عليه، فقلت له: لو تحولت إلى الكِنّ؟ فقال: لا، ثم أنشأ يقول:

لقد وضح الطريق إليك قصدا   فما أحد أرادك يستـــدلُّ

فإن ورد الشتاء ففيك صيــف   وإن ورد المصيف ففيك ظلُّ

ثم قال لي: هات يدك؟ فناولته يدي، فأدخلتها تحت خرقته، فإذا هو ينصبب عرقا!

قال: سمعت أبا الحسن الفارسي يقول كنت في بعض الوادي، فأصابني عطش شديد حتى تعبت عن المشي من الضعف، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت، قال: فقعدت وأنا أنتظر تقطر عيني، إذ سمعت حسا، فنظرت، فإذا هي حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق، وقد قصدتني مسرعة، فهالتني، فقمت فزعا، ودخلتني قوة من الفزع، فجعلت أمشي على ضعف، وهي خلفي تنفث، فلم أزل أمشي وهي خلفي حتى بلغت ماء، وسكن الحس، فالتفت فلم أرها، وشربت الماء فنجوت! قال: وربما يكون بي غم أو علة، فأراها في النوم، فتكون بشارة لي بفرج غمي وزوال علتي.

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "في لطائفه بهم فيما يحملهم".

ش : أي : يعينهم على حمل الشدائد ويفرجها عنهم ويخففها عليهم.

ص: قوله: "سمعت فارسًا يقول: سمعت أبا الحسن العلوي تلميذ الخواص يقول: رأيت إبراهيم الخواص بالدينور في جامعها، وهو جالس في وسطه، والثلج يقع عليه، فأدركني الإشفاق عليه، فقلت له: لو تحولت إلى الكنّ ؟ .

فقال لي: لا، ثم أنشأ يقول:

لقد وَضح الطريق إليك قصدًا فما أحدٌ أرادك يستدل

فإن ورد الشتاء ففيك صيف وإن ورد المصيف ففيك ظل

ثم قال لي: هات يدك، فناولته يدي، فأدخلها تحت خرقته، فإذا هو يتصبب عرقًا".

ش أي: فما يستدل أحد إرادك، وهذا بالنسبة إلى أصحاب المشاهدات وأرباب المكاشفات، ولشدة استغراقهم في لذة القرب وسكرهم من شراب الحب لا يحسون بما يطرأ عليهم من الآلام، ولا يدركون أذى الحر والبرد، ولا يبقى لهم حاجة لحاجة غيرهم إلى شراب أو طعام.

ص: قوله: "سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: كنت في بعض البوادي، فأصابني عطش شديد حتى تعبت من المشي ومن الضعف، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت، قال: فقعدت وأنا أنتظر تقطر عيني إذ سمعت حسًّا، فنظرت فإذا حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق، وقد قصدتني مسرعة، فهالتني فبقيت فزعًا، ودخلتني قوة من الفزع، فجعلت أمشي على ضعف وهي خلفي تنفش، فلم أزل أمشي وهي خلفي حتى بلغت ماء وسكن الحسُّ، فالتفتُ فلم أرها، وشربت الماء فنجوت، قال: وربما يكون بي غم أو علة، فأراها في النوم، فيكون بشارة لي بفرج غمي وزوال علتي".

ش: زاد بعضهم في هذه الحكاية أن الحية لم تزل خلفي، وكنت إذا أخذت في يمين الطريق أو يساره انعطفت عليّ فمنعتني من سلوكه، فما زالت بي كذلك حتى ساقتني

قدامها، فأوردتني الماء، كما يورد الإبل العطاش الماء صاحبها، قال: فلما وردت الماء بقيت حائرًا في أمري، وقلت في نفسي: إن اشتغلت بشرب الماء لحقتني الحية فأهلكتني، وإن تركت الماء وجاوزته أهلكني العطش.

قال: فسمعت كأن الحية من ورائي تقول: يا أبا الحسن ألبس هذا بحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف من العطش بالحية، فنظرت من ورائي فما وجدت شيئًا، والظاهر أنها كانت ملكًا أو جنيًا تمثل له في صورة حية بإذن الله تعالى.

والله أعلم.



الباب الثالث والسبعون

لطائفه بهم في الموت وبعده

قال المصنف

قال أبو الحسن المعروف بالقزاز كنا في الفج، فأتانا شاب حسن الوجه عليه طمران، فسلم علينا وقال: هاهنا موضع أموت فيه نظيف؟ قال: فعجبنا، وقلنا له: نعم، فدللناه على عين بالقرب منا، فذهب، فتوضأ، وصلى ما شاء الله، ثم انتظرنا ساعة فلم يجئنا، فأتيناه، فإذا هو ميت!

قال أصحاب سهل بن عبد الله: كان سهل على التخت يغسل، وسبابته من يده اليمنى منتصبة؛ يشير بها!

قال أبو عمرو الاصطخري: رأيت أبا تراب النخشبي في البادية قائما، ميتا لا يمسكه شيء!

قال إبراهيم بن شيبان: وافاني بعض المريدين فاعتل عندي أياما، فمات، فلما أن أدخل في قبره، أردت أن أكشف خده وأضعه على التراب تذللا؛ لعل الله يرحمه، فتبسم في وجهي، وقال لي: تذللني بين يدي من يدللني؟ قال: قلت: لا يا حبيبي، أحياة بعد الموت؟! فأجاب: أما علمت أن أحباءه لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار

وقال إبراهيم بن شيبان أيضا: كان عندي في القرية شاب من أهلها، متنسكا، ملازما للمسجد، وكنت مشغوفا به، فاعتل، فأتيت في بعض الجمعات البلد للصلاة، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخواني بقية يومي وليلتي، فوقع علي الانزعاج بعد العصر فأتيت القرية بعد العتمة، فسألت عن الفتى؟ قالوا: نظنه متوجعا، فأتيته، وسلمت عليه،

وصافحته، فخرجت روحه مع المصافحة، فتوليت غسله، فغلطت في صب الماء، أردت أن أصب على يمينه صببت على يساره، ويده في يدي، فانتزع يده من يدي حتى ذهب ما كان عليه من السدر! فغشي على من كان معي، ثم فتح عينيه فيّ، ففزعت، وصليت عليه، ودخلت القبر أواريه، وكشفت عن وجهه، ففتح عينيه، وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه، فسوينا عليه، وحثينا عليه التراب.

يشهد لصحة ذلك: ما حدثنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الفارسي، حا نصر ابن أحمد البغدادي، ح الوليد بن شجاع السكوني، عن خالد، عن نافع الأشعري، عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش، أن الربيع بن خراش كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار؟ فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات - فيما يرون -، فأغمضوه، وسجوه، وبعثوا إلى قبره ليحفر، وبعثوا إلى كفنه فأتى به، فقال ربعي بن خراش: رحم الله أخي، كان أقومنا في الليل الطويل، وأصومنا في اليوم الحار"؛ قال: فإنهم لجلوس حوله، إذ طرح الثوب عن وجهه، فاستقبلهم وهو يضحك! فقال له أخوه ربعي: يا أخي، أبعد الموت حياة "؟! قال: نعم، إني لقيت ربي، وإنه تلقاني بروح وريحان، ورب غير غضبان، وإنه قد كساني سندسا وحريرا، ألا وإني وجدت الأمر أيسر مما ترون، فلا تغتروا؛ فإن خليلي محمدا ﷺ ينتظرني ليصلي علي، الوَحَى الوَحَى، ثم خرجت نفسه في آخر ذلك كأنها حصاة قذفت في ماء، فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين، فقالت: أخو بني عبس رحمه الله، سمعت رسول الله يقول: {يتكلم رجل من أمتي بعد الموت، من خير التابعين}.

قال الشارح

ش : قوله: "أي فيما خصهم الله تعالى به عند الخروج من الدنيا وبعد ذلك من الكرامات وعرفهم إذ ذاك فما لهم عنده من الزلفى والدرجات، وأحوالهم عند الموت مختلفة".

فمنهم من يغلب عليه الهيبة.

ومنهم من يغلب عليه الرجاء.

ومنهم من يكشف له في تلك الحالة بما يوجب له السكون وجميل الثقة.

وقد نص العلماء على أن الأولى للمحتضر أن يكون رجاؤه غالبًا، ويحسن الظن بالله تعالى.

فقد قال تعالى على لسان نبيه: "أنا عند ظن عبدي بي" (١).

وفي الحديث : "عن أنس أن النبي ﷺ : دخل على شاب وهو في الموت، فقال: كيف تجدك ؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ : لا تجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخاف" (٢).

ص: قوله: "قال أبو الحسن المعروف بالقزاز: كنا في الفج، وآتانا شاب حسن الوجه عليه طمران، فسلم علينا، وقال: ها هنا موضع أموت فيه نظيف، فتعجبنا منه وقلنا له: نعم، فدللناه على عين بالقرب منا، فذهب وتوضأ وصلى ما شاء الله، فانتظرناه ساعة، فلم يجيئنا، فأتيناه فإذا هو ميت".

ش : الفجّ في اللغة هو الطريق الواسع بين الجبلين.

والظاهر أن المراد به ها هنا اسم مكان مخصوص.

---

(١) البخاري، الصحيح، إلى أبي هريرة ج٩ رقم ٧٤٠٥ ، ومسلم رقم ٢٦٧٥.

(٢)رواه بن ماجه عن أنس حديث رقم ٤٢٥٩

وذكر القشيري هذه الحكاية وقال فيها بعد ذكره سلام الفقير المذكور: إنه قال: (ها هنا موضع نظيف) يمكن الإنسان أن يموت فيه.

وحكي غيره أنه قيل له: وكيف عرفت أنك تموت الآن ؟

قال: لأنه لم يبق لي عنه صبر – وحاشاه من حبيب أن يُعذِّب مَحبَّه بـألم الفـراق أكثر من هذا

ص: قوله: "قال أصحاب سهل بن عبد الله: كان سهل على التخت يغسل، وسـبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها.

قال أبو عمرو الاصطخري: رأيت أبا تراب النخشبي في الباديـة قائمـا ميتـا لا يمسكه شيء".

ش : هذه أحوال حسنة لهم بعد الموت، وكذا ما يأتي بعد هذا .

ويقال: إن أبا تراب كان قد سأل الله تعالى أن يقبض روحه وهو قائم يصلي.

ص: قوله: "قال إبراهيم بن شيبان: واتاني بعض المريدين، فاعتل عنـدي أيامـا – فمات– فلما أُدخل في قبره، أردت أن أ كشف خده، فأضعه على التراب تذللاً لعـل الله أن يرحمه، فتبسم في وجهي، وقال لي: تذللني بين يديّ مَن يُذَلّلني ؟! قـال: قلـت: لا يـا حبيبي".

ش :يروى في تتمة هذه الحكاية أنه قال: قلت :

ص: "أحياة بعد موته.

فأجاب، أما علمت أن أحبُاءَه لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار".

ش :والقدرةُ صالحةٌ لإنطاق الميت، بل الجماد الذي لم يكن له حياة أصـلاً، بـدليل تسبيح الحصى، وتسليم الحجر على رسول الله ﷺ.

ص: قوله: "قال إبراهيم بن شيبان أيضًا، كان عندي في القرية وهيَ وفاة شاب من أهلها متنسكا ملازم للمسجد، وكنتُ مشغوفًا به، فأتيت في بعض الجُمعات البلد للصـلاة،

وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخواني بقية يومي وليلتي، فوقع علي الانزعاج بعد العصر، فأتيت القرية بعد العتمة، فسألت عن الفتى، فقالوا: نظنه متوجعًا، فأتيته فسلمت عليه وصافحته، فخرجت روحه مع المصافحة، فتوليت غسله، فغلطت في صب الماء، فأردت أن أصب على يمينه صببت على يساره، ويده في يدي، فانتزع يده من يدي حتى ذهب ما كان عليه من السدر، فغُشي على من كان معي، ثم فتح عينيه فيَّ، ففزعت، فصليت عليه، ودخلت القبر أواريه، فكشفت عن وجهه، ففتح عينيه فيّ وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه، فسوينا عليه، وحثينا عليه التراب".

ش :النواجذ: أواخز الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في أقصى الأسنان بعد الأضراس واحدها، ناجذ، ويسمى ضرس الحُلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل.

ولفظ البلد قد شاع في عرف أهل مصر إطلاقه علي القرى، وعرف بلادنا أنه إنما يطلق على المدن.

والظاهر أن راوي الحكاية المذكورة كان أهل قريته حنفيّة وهم لا يرون إقامة الجمعة في القرى، بل في المدن بشروط، فلذلك أتى المدينة لصلاة الجمعة.

والبلدة في اللغة: الأرض، يقال: هذه بلدتنا كما يقال بحَرْتنا: أي أرضنا، فهي أعم من حيث اللغة من القرى والمدن.

ص: قوله: "يشهد بصحة ذلك ما حدثنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الفارسي، قال: حدثنا نصر بن أحمد البغدادي، قال: حدثنا الوليد بن شجاع السكوني، عن خالد، عن نافع الأشعري، عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش، إن الربيع بن خراش كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار؟ فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات فيما يرون، فأغمضوه، وسجّوه، وبعثوا إلى قبره ليحفر، وبعثوا إلى كفنه فأتى به.

فقال ربعي بن خراش: رحم الله أخي، كان أقومنا في الليل التمام، وأصومنا في اليوم الحار، قال: فإنهم لجلوس حوله، إذ طرح الثوب عن وجهه، واستقبلهم وهو يضحك.

فقال أخوه ربعي: يا أخي أبعد الموت حياة.

قال نعم، إني لقيت ربي وإنه تلقاني بروح وريحان ورب غير غضبان، وأنه قد كساني سندسًا وحريرًا، ألا وإني وجدت الأمر أيسر مما يرون، فلا تغتروا، وأن خليلي عليه السلام ينتظرني ليصلي عليّ، الوحي ثم الوحي، ثم خرجت نفسه في آخر ذلك، وكأنها حصاة قذفت في ماء، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها ، فقالت: أ خو بني عبس رحمه الله سمعت النبي ﷺ يقول: "يتكلم رجل من أمتي بعد الموت من خير التابعين"] [١].

ش : إن صح هذا الحديث وكان المراد به هذا الذي ذكر في هذه الحكاية، فلا حاجة إلى قوله فيها: "حتى مات فيما يرون" أي يظنون، بل ينبغي أن يقال: - حتى مات- ويجزم بموته لظاهر قوله ﷺ : " يتكلم رجل من أمتي بعد الموت".

ويقال: سجيّت الميت تسجية: إذا مددت عليه ثوبًا.

وقوله: "في الليل التمام" يقال: ليلة التمام بكسر التاء لأطول ليلة في السنة، ويبعد إرادة ذلك ها هنا.

أما من حيث اللفظ فلان ذلك مضاف بخلاف هذا وأما من حيث المعنى فلأن القيام في أطول ليلة في السنة ليس فيه كثير فضل، ولا مزية.

فالظاهر أن التمام بفتح التاء صفة لليل، وأراد به قيامه في الليل كله، لكن كلمة – في – لا يستدعي الاستيعاب، لكن فيه بعض بُعد.

وقوله: "بروح" أي استراحة.

– وبرد وريحان– : أي رحمة ورزق حسن.

وقوله: "ورب غير غضبان" مع قوله: "وأنه تلقاني" من الباب الذي يسمى التجريد في علم البيان.

---

(١) أبو نعيم ، حلية الأولياء ج٤ ص ٣٦٧.

وقوله: "فلا تغتروا" : أي مع إخباري لكم بأن الأمر أيسر، فلا تغتروا بل اعملـــوا، فكل ميسر لما خلق له.

وقولهم: "الوحا الوحا" معناه: البدار البدار.

* * *

الباب الرابع والسبعون

من لطائف ما جرى عليهم

قال المصنف

قال أبو بكر القحطبي: كنت في مجلس سمنون، فوقف عليه رجل، فسأله عن المحبة؟ فقال: لا أعرف اليوم من أتكلم عليه بعلم هذه المسألة "؟ فسقط على رأسه طائر، فوقع على ركبته! فقال: إن كان فهذا، ثم جعل يقول - ويشير إلى الطير -، بلغ من أحوال القوم كذا وكذا، فشاهدوا كذا وكذا، وكانوا في حال كذا وكذا ". فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتا.

قال أبو بكر بن مجاهد: سمعت أحمد بن سنان العطار يقول: سمعت بعض أصحابنا يقول: خرجت يوما إلى نيل واسط، فإذا أنا بطير أبيض في وسط الماء، وهو يقول: سبحان الله على غفلة الناس ".

قال جعفر: سمعت الجنيد يقول: لقيت شابا من المريدين في البادية، جالسا عند شجرة، فقلت: يا غلام، ما الذي أجلسك هاهنا؟ فقال: ضال افتقدته. فمضيت وتركته، فلما انصرف، إذا أنا به قد انتقل إلى موضع قريب مني! فقلت له: فما جلوسك الساعة هاهنا؟ قال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع، فلزمته ". فقال الجنيد: فلا أدري أي حاليه أشرف، لزومه لافتقاد حاله، أو لزومه الموضع الذي نال فيه مراده "؟

قال أبو عبد الله محمد بن سعدان: سمعت بعض الكبراء يقول: كنت يوما جالسا بحذا البيت، فسمعت أنينا من البيت: يا جدر تنحَّ عن طريق أوليائي وأحبائي، فمن زارك بك طاف حولك، ومن زارك بي طاف عندي ".

* * *

قال الشارح

ص: قوله: "قال أبو بكر القحطبي: كنت في مجلس سمنون، فوقف عليه رجل، فسأله عن المحبة، فقال: لا أعرف اليوم من أتكلم عليه بعلم هذه المسئلة، فسقطي طير فوقع على ركبته، فقال: إن كان فهذا. ثم جعل يقول: - ويشير إلى الطير - بلغ من أحوال القوم كذا وكذا، فشاهدوا كذا وكذا فكانوا في حال كذا وكذا، فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتًا " .

ش :لا ينبغي أن يستنكر وقوع مثل هذا للأولياء.

فقد تقدم أن الصحيح عند حذاق المتكلمين أنه يجوز أن يصير ما كان معجزة للأنبياء -عليهم السلام- كرامة للأولياء رضي الله عنهم ، وقد كان إفهام الطير، والفهم عنه من معجزات سليمان عليه السلام ، فلا استحالة في كونه كرامة لهذا الولي المذكور.

ويجوز أيضًا أن يحصل للطير معرفة الله تعالى ومحبته بدليل قول الهدهد على ما أخبر الله عنه في كتابه العزيز: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله"[1] ... إلى آخر ما أخبر عنه على أنه يجوز أن ذلك الطائر كان خلقًا آخر تمثل له بصورة الطير.

والله أعلم.

ص: قوله: "قال أبو بكر بن مجاهد؛ سمعت أحمد بن سنان العطار يقول: سمعت بعض أصحابنا يقول: خرجت يومًا إلى نيل واسط، فإذا أنا بطير أبيض في وسط الماء، وهو يقول: سبحان الله على غفلة الناس".

---

(١) النمل ٢٤ جزء آية.

ش : هذا أيضا غير مستنكر، فإن بعضهم نقل إجماع الأمة على جواز تسبيح الحيوانات، قال الله تعالى: "ألم ير أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه"[١].

وإنما اختلفوا في تسبيح الجمادات حقيقة، فجوّزه أهل السنة، ومنعه المعتزلة، وظاهر العموم في قوله تعالى: "وإن من شيء إلا يسبح بحمده"[٢]، يتناول الجمادات.

والأصل في لفظ التسبيح: حملة على معناه الحقيقي، وهو التسبيح المقالي لا الحالي.

وقوله تعالى: "يا جبال أوبي معه والطير"[٣]، ظاهر في ذلك، وكونه خارقًا للعادة لا يمنع ظهوره لبعض الأولياء أيضًا على ما مر.

وقوله: "سبحان الله على غفلة الناس" كان الكلام يتضمن مع التعجب معنى التحسّر، فلهذا حَسُن الإتيان فيه بكلمة – على-.

ص: قوله: "قال جعفر: سمعت جنيدًا يقول: لقيت شابًا من المريدين جالسًا في البادية عند شجرة، فقلت: يا غلام: ما الذي أجلسك ها هنا ؟ .

فقال: ضال افتقدته، فمضيت وتركته، فلما انصرفت فإذا أنا به قد انتقل إلى موضع قريب منه، فقلت له: فما جلوسك الساعة ها هنا ؟ فقال: وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته.

قال الجنيد: لا أدري أي حاليه أشرف لزومه لافتقاد حاله، أو لزومه الموضع الذي نال فيه مراده".

ش : يقال: فقدت الشيء وافتقدته: بمعنى واحد، وتفقدته: معناه طلبته عند غيبته.

---

(١) النور ٤١ جزء آية.

(٢) الاسراء ٤٤

(٣) سبأ ١٠ جزء آية.

وأراد الشاب: بالضال، ما كان له من سَنِي الأحوال، وقد فقده في ذلك الموضع ولزومه للموضع قد يكون ليجدّد فيه من صالح الأعمال، والتضرع والابتهال والإلحاح في الدعاء والسؤال ما لعله أن يصير سببًا لعود ذلك الحال، ثم إنه لما وجد ضالته هناك لـزم الموضع الذي وجدها فيه على طمع الزيادة من الخير.

وشكرًا لله تعالى في ذلك الموضع بما عسى أن يصدر عنه فيه من العبادات.

وقد يقال : "لزومه الموضع" لأجل افتقاد حاله فيه، وطلب عوده إليه أهم مـن لزومه بعد وجدانه، ولزومه بعد وجدانه أشرف لحصول الكمال والأنس بما وجده، وهـو قبل ذلك في نقصان ووحشة.

والله أعلم.

ص: قوله: "قال أبو عبد الله محمد بن سعدان: سمعت بعض الكبراء يقول: كنت يومًا جالسًا بحذا البيت: فسمعت أنينًا من البيت: يا جُدر تنحي عن طريق أحبائي، فمـن زارك بك طاف حولك، ومن زارني بي طاف عندي".

ش : أراد بالأنين: الصوت الخفي.

ومعنى قوله: "تنحي" : لا تكوني حجابًا بيني وبينهم حتـى يكونـوا بأسـرارهم طائفين عندي.

قال بعضهم: الكعبة قبلة النفوس، والعرش قبلة القلوب، والرب قبلة الأسـرار، ومن انصرفت نفسه عن قبلتها فاتته الخدمة، ومن انصرف قلبه عن قبلته فاتته المعرفـة، ومن انصرف سره عن قبيلته فاتته المشاهدة.

* * *

البَاب الخامس والسبعون

في السَّماء

قال المصنف

السماع: استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال.

وإنما اختير على غيره مما تستروح إليه الطباع، لبعد النفوس عن التشبث به، والسكون إليه؛ فإنه من القضاء يبدو وإلى القضاء يعود.

وأرباب الكشوف والمشاهدات، استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم، تنزه أسرارهم في ميادين الكشوف.

سمعت فارسا يقول: كنت عند قوطة الموصلي، وكان لزم سارية في جامع بغداد أربعين سنة، قلنا له: هاهنا قوال طيب، ندعوه لك؟ قال: أنا أجل من أن يستقطعني شخص، أو ينفذ فِيَّ قول: أنا ردم كله".

فالسماع إذا: قرع الأسماع آثار كَوَامِن أسرارها، فمن بين مضطرب: لعجز الصفة عن حمل الوارد، ومن بين متمكن: بقوة الحال.

قال أبو محمد رويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول: حين خاطبهم بقوله: {ألست بربكم}؟ فكمن ذلك في أسرارهم كما كمن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا كوامن أسرارهم فانزعجوا، كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك فصدقوا".

سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: السماع على ضربين: فطائفة: سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز وحضور القلب.

وطائفة: سمعت النغمة (وهي قوت الروح)، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة "

قال أبو عبد الله النباجي: السماع، ما أثار فكرة، واكتسب عبرة. وما سواه فتنة ".

قال الجنيد: الرحمة تنزل على الفقير في ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة.

وعند الكلام؛ فإنه لا يتكلم إلا للضرورة.

وعند السماع، فإنه لا يسمع إلا عند الوجد

* * *

قال الشارح

ص: اعلم أن لفظ "السماع" من حيث اللغة أعم مما هو متفق على جوازه، ومما هو مختلف فيه، فمن المتفق على جوازه، بل على استحبابه، سماع قراءة القرآن بغير نغم، ولا ألحان، قال الله تعالى: "فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب" [1]، وقال تعالى: "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" [2].

فهذا هو السماع الحق، الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية، واللّب. وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال: "لأبي اقرأ عليَّ ، قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل، فقال: أحبُ أن أسمعه من غيري- أو كما قال- فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا " ، فإذا عينا رسول الله ﷺ تهملان"[3]- هذا معنى الحديث - فإن اقترن بقراءة القرآن شيء من الغناء، والإلحان، فإن لم يفرط في المد، وإشباع الحركات، فحسن عند الجمهور لقوله ﷺ : "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"[4]، وحمله الشافعي، وغيره على تحسين الصوت دون الاستغناء به، فتحسن الصوت بقراءة القرآن، وتحزيبه مستحب.

سمع رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري يقرأ فقال: "لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود، فبلغ ذلك أبا موسى فقال: لو علمت أنك تسمعه لحبرته لك تحبيرًا " [5]،

---

(١) الزمر ١٧ ، ١٨.

(٢) المائدة ٨٣ جزء آية.

(٣) البخاري، الصحيح بالسند إلى عبد الله بن مسعود ج٦ رقم ٥٠٥٠ ، ومسلم رقم ٨٠٠.

(٤) البخاري، الصحيح، إلى أبي هريرة وزاد غيره "يجهر به" ج٩ رقم ي٧٥٢٧.

(٥) الجملة في البخاري ج٦ رقم ٥٠٤٨ وهو في السنن الكبرى للبيهقي ج٧ رقم ٨٠٠٤.

وإن أفرط في التمطيط بحيث يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أو أدغم في غير موضع الإدغام، فالجمهور على كراهيته، بل تحريمه.

وعن "ابي الفرج السرخسي" حكاية وجهٍ في مذهب الشافعي بأنه : لا كراهة وإن أخذا بإطلاق.

قوله ﷺ : "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" ؛ ومن السماع المختلف فيه، ما هو المشهور بين الناس من الغناء بالآلة، وغير الآلة.

وقد اختلف فيه قديمًا، وحديثًا، فمنهم من ألحقهُ بالمعاصي، والمحرمات، ومنهم من جعله من قبيل القرب، والمستبحات، والتوسط، والتفصيل أقرب إلى الصلوات؛ إذ الإفراط مظنة الآفات، والانحرافات.

وقد صنف العلماء فيه تصانيف، وجمعوا ما ورد فيه من ترغيب، وترهيب، وترجية وتخويف، وتكلموا في حجج التحريم، والتحليل، والإباحة، والندب، وأجوبتها بما لا يحتمل هذا المجموع استيعاب ذلك.

وممن قال بإباحته من الأثريين "الحافظ أبو محمد بن حزم" ، و"الحافظ محمد ابن طاهر المقدسي" وله في ذلك تصنيف لطيف.

وقد أوردي "ابن حزم" الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ في التحريم، والكراهة في كتابه الكبير المسمى "بالمحلى" ، وأجاب عن الجميع بأجوبة حسنة على طريقة المحدثين من الكلام على الرواة، وغير ذلك، وآخر ما أورده من ذلك، الحديث الذي أخرجه البخاري.

وقال "هشام بن عمار" و"صدقة بن خلد" ، و"عبد الرحمن بن يريد بن جابر" ، و"عطية بن قيس الكلابي" ، و"عبد الرحمن بن غنم الأشعري" : حدثني أبو عامر، وأبو مالك الأشعري: **"والله ما كذبني**، أنه سمع رسول الله ﷺ **يقول: "ليكونن من أمتي قوم**

يستحلون الحز، والحرير، والخمر، والمعازف" [١]. قال ابن حزم: وهذا منقطع لم يتصل ما بين البخاري وصدقة بن خالد". قال: ولا يصح في هذا الباب شيء أبدًا، وكل ما فيه فسوضوع. وقال والله لو أسند واحد منهم فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ، لما ترددنا في الأخذ به، ثم ذكر ما روى عمن دون النبي ﷺ، كما روى عن ابن مسعود، وابن عباس ﷺ في قوله تعالى: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث"[٢]، أنه الغناء، وشرى المغنية. وأجاب عنه بوجوه منها: أنه لا حجة في أحد دون رسول الله ﷺ، والثاني: من خالفهم غيرهم من الصحابة، والتابعين، والثالث: أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها، لأن فيها "ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزوا " ... الآية.

وقال: وهذه صفة من فعلها كان كافرًا بلا خلاف، ولو أن امرئ اشترى مصحفًا ليضل به عن سبيل الله، ويتخذها هزوا لكان كافرًا، فهذا هو الذي ذم الله تعالى، وما ذم قط من اشترى لهو الحديث ليلتهي به، ويروح نفسه، لا ليضل عن سبيل الله.

ولذلك من اشتغل عامد عن الصلاة بقراءة القرآن، أو بقراءة السنن، فهو عاص لله تعالى، فاسق، ومن لم يضيع شيئًا من الفرائض اشتغالاً بما ذكرنا فهو حسن.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بسنده إلى عبد الرحمن بن غانم الأشعري قال: "حدثت أبو عامر أبو مالك الأشعري – والله ما كذبني – سمع النبي ﷺ يقول: "ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليه بسارحة لهم . يأتيهم – يعني الفقير – لحاجة فيقولون ارجع إلينا غدًا. فيبيتهم الله ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة "

(٢) لقمان ٦ جزء آية.

قال ابن حزم: واحتجوا - يعني: مخالفيه، فقالوا: أمن الحق الغناء أم من غير الحق ؟ ولا سبيل إلى ثالث ؟ فقالوا: وقد قال تعالى: "فماذا بعد الحق إلا الضلال"(١) .

قال: وجوابنا، وبالله التوفيق: أن رسول الله ﷺ قال: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"(٢)، فمن نو باستماع الغناء عونًا على معصية فهو "فاسق" ، وكذلك بكل شيء غير الغناء، ومن نوى به ترويح نفسه ليتقوى بذلك على طاعة الله عز وجل، وينشط بذلك نفسه على البر فهو "مطيع محسن" ، وفعله هذا من الحق، ومن لم ينوي طاعة، ولا معصية فهو "لغو" معفو عنه لخروج الإنسان إلى بستانه متنزهًا، وتعوده على بابه متفرجًا، ومد ساقيه، وقبضها، وغير ذلك من سائر أفعاله.

وذكري بعد ذلك أحاديث تدل على حمل السماع كل من الدف، والشبابة، والرقص، في الجملة.

كحديث عائشة أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان يغنيان ويضربان بالدف ورسول الله ﷺ متسجى بثوبه، فانتهرها أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ وجهه، وقال: "دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد"(٣)، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما : "أنه سمع مزمارًا فوضع أصبعيه في أذنيه، ونائى عن الطريق، وقال لنافع مولاه: يا نافع هل تسمع شيئًا ؟ قال نافع: قلت: لا، قال: فرفع أصبعيه من أذنيه،وقال كنت مع النبي ﷺ وسمع مثل هذا فصنع مثل هذا " (٤).

---

(١) يونس ٣٢ جزء آية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ٣٤٣٠.

(٣) رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين ٣٥٢٩.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ١٥/ ٣٧٥ رقم ٢٠٩٩٧ وأخرجه أبو داود في صحيحه (٤/ ٢٨٣) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٨).

قال ابن حزم: ولو كان المزمار حرامًا سماعه لما أباح (عليه الصلاة والسلام) لابن عمر سماعه، ولو كان عند بن عمر حرامًا سماعه لما أباح لنافع سماعه، ولأمر ﷺ بكسره، وبالسكوت عنه، وما فعل شيئًا من ذلك، وإنما تجنب النبي (عليه الصلاة والسلام) سماعه لتجنبه المباحِ من أكثر أمور الدنيا؛ كتجنبه الأكل متكئًا، وأن يبيت عنده دينارًا أو درهمًا، وأن تعلق الستر على شهوة في البيت، على أن هذا الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، وأنكره ثم ذكر ابن حزم حديث الحبشة الذين كانوا يدفون أي يرقصون في المسجد في يوم عيد، قالت عائشة: فدعاني النبي ﷺ حتى وضعت رأسي على منكبيه، فجعلت أنظر إلى لعبهم، حتى كنت أنا التي انصرفت"[1] (وهو حديث صحيح) ... إلى غير ذلك من الأخبار، والآثار التي يطول ذكرها، والأصل في الأشياء الحل ما لم يثبت دليل على التحريم، غير أن الذي اختاره المتأخرون من فقهاء الشافعية مثل الإمام الغزالي، والرافعي، والنووي، رحمهم الله، أن الغناء بما هو من شعار شاربي الخمر من الآلات المطربة كالعود، والجنك، والطنبور، وسائر المعازف، والأوتار،بجزم تحريم استعماله، والاستماع إليه، وما عدا ذلك ففيه الخلاف، واختلفوا في التصفيح، والغناء بمجرد الصوت من غير آلة، نقل الرافعي أنه مكروه غير محرم – وكذا سماعه، وأفتى الشيخ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح بتحريم الهيئة الاجتماعية من الدف، والشبابة، وربما أدعى الإجماع على ذلك، ولم يوافق عليه.

واستفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن السماع بالدف، والشبابة، من أمرد جميل فأجاب: بأن سماع ذلك أن كان ممن يأمن الافتتان ففيه الخلاف المعروف في الشبابة، والدف، وإن لم يأمن الافتتان فهو حرام، وقال في القواعد، ومن يحضره المعارف، والأحوال، عند سماع المطربات المختلف في تحليلها كسماع الدف، والشبابة فهو إن اعتقد التحريم مسيئ بسماعه، محسن بما حصل له من المعارف، وإن اعتقد تحليلهما تقليدًا لمن قال به من العلماء فهو تارك للورع باستماعه، محسن بما حصل له.

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٠٩ رقم (٢٠) كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب.

فظاهر كلامه هذا أن أمر العلماء من يرى تحليلها مجتمعين على خلاف ما قالـه ابن الصلاح.

وروى الحافظ بن طاهر المقدسي بإسناده عن مصعب بن الزبير أنه قال: حضـرت مجلس مالك بن أنس، فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال مالك: مـا أدري أهـل العلـم ببلادنا لا ينكرون ذلك، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبي جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع.

وقد نقل جماعة من أكابر العلماء الصالحين المقتدى بهم حضور السماع.

قال الحافظ محمد بن طاهر المقدسي، أخبرنا أبو محمد التميمي قال: سألت الشريف أبا علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي عن السماع، فقال: ما أدري ما أقول فيـه إلا أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاث مائة في دعوة عملها لأصحابه حضرها أبو بكر الأبهري – شيخ المالكيين– وأبو القاسـم الداركي – شيخ الشافعيين – وأبو الحسن طاهر بن الحسين – شيخ أصـحاب الحـديث – وأبو الحسين بن سمعون – شيخ الوعاظ والزهاد – وأبو عبـد الله بـن مجاهـد – شـيخ المتكلمين – وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التميمي – شيخ الحنابلة – فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق مَن يفتي في حادثة بسنة، وكان معهم أبو عبد الله وكان يقرأ بصوت حسن، فقالوا له: قل شيئًا، فقال وهم يسمعون:

خطت أناملها في بطن قرطـاس رسـالة بعير لا بأنفاس[1]

أن زر فديتك قف لي غير محتشم فإن حبك لي قد شـاع في الناس

فكان قولي لمن أدى رسالتـها قفي لا مشى على العينين والراس

---

(١) هكذا في تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لـ برهان الدين اليعموري ج٢ / ١٢٩ي ي، وفي تلبيس إبليس لابن الجوزي "قف لي" ١/ ٢١٤ ، أنشده، أبو نصر عبد الرحيم بن جعفر ، نسبه إلى نفسه.

قال ابن طاهر وآخر من يبيح استماعه من الأئمة المقتدى بهم أبو إسحاق إبراهيم الفيروز آبادي المعروف بالشيرازي ببغداد قال: والسبب فيه أنه كان في مبدأ أمره على مذهب أهل الظاهر، وإنما انتقل عنه إلى مذهب الشافعي، وكان في ورعه، وزهده، وتقشفه، في المحل الذي لا يخفى إلا على جاهل لا يعتد به، وكان في عصره ببغداد، وغيرها جماعة من الأئمة، من سائر الفرق، يعرفون هذا من مذهبه، وسيرته، ولم يظهر من واحد منهم نكير لفعله، وحضره من المتأخرين الشيخ عز الدين ابن عبد العزيز، وشيخنا الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وغيرهما من العلماء الأعلام أئمة الإسلام.

وأما شيخ شيوخنا صاحب العوارف شهاب الدين السهروردي ﷺ فإنه بعد أن نقل عن صاحبه القوت أبي طالب المكي أنه قال(في السماع: حرامٌ، وحلالٌ، وشبهةٌ .

فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوةٍ، وهوى فهو: حرام.

ومن سمعه بمعقوله علي صفة مباح من جاريةٍ، أو زوجه كان: شبهة، لدخول اللهو فيه.

ومن سمعه بقلب يشاهد معان تدله على الدليل، وتشهده طرقات الجليل فهو: مباح.

قال هذا قول الشيخ أبي طالب المكي، وهو الصحيح، فإذاً لا يطلق القول بمنعه وتحريمه، والإنكار على من يسمعه، كفعل القراء المتذهدين المبالغين في الإنكار، ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المستهترين به، أي:(المولعين به، المهملين شروطه، وأدابه، المقيمين على الإصرار).

ونفصل الأمر فيه تفصيلاً، وتوضيح الماهية فيه تحريمًا، وتحليلاً.

قال: فأما الدف والشبابة[1]، وإن كان في مذهب الشافعي فيهما فسحة، فالأولى تركهما، والأخذ بالأحوط، والخروج من الخلاف.

---

(١)الشبابة:نوع المزمار

وأما غير ذلك، فإن كان من القصائد التي في ذكر الجنة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعيم الملك الجبار، وذكر العبادات، والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار، ومن ذلك القبيل قصائد الحجاج، والغزاة في وصف الحج والغزو، ومما يثير كامن العزم من الغازي، وساكن الشوق من الحاج.

وأما إن كان فيه ذكر القدود، والخدود، ووصف النساء، فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك.

وأما ما كان من ذكر الوصل، والهجر، والقطيعة، والصد مما يقرب حمله على أمر الحق سبحانه من تلون أحوال المريدين، ودخول الآفات على الطالبين، فمن سمع ذلك، وحدث عنده ندم على ما فات أو تجدد عنده عزم لما هو آت، فكيف ينكر سماعه ؟ ! .

وقد قيل أن بعض الواجدين كان يقتات السماع، ويتقوى به على الطيِّ ، والوصال، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع، فإذا استمع العبد إلى بيتٍ من الشعر وقلبه حاضر فيه، ويسمع الحادي يقول مثلاً :

أتوب إليك يا رحمن أني ... أسأت وقد تضاعفت الذنوب

فأما من هوى ليلى ... وحبي زيارتها فإني لا أتوب[1]

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى الممات، يكون في سماعه هذا ذكراً لله تعالى) [2].

---

(١) نسبت مجلة البحوث الإسلامية بالمملكة السعودية البيت لأبي بكر الدينوري الحنبلي عدد ٣١/ ٢٣٣. وقبله قال الشاعر:

أتوب إليك يا رحمن مما جنيت ·· فقد تعاظمت الذنوب

وأما عن هو ليلي ·· وتركي زيارتها فإني لا أتوب

(٢) عوارف المعارف من صـ٢٢٩:صـ٢٣٠

وأما الحركة في السماع، فقد استأنسوا لها بما روى أن رسول الله ﷺ قال: لعلي ﷺ : "أنت مني، وأنا منك، فحجل" ، وقال لجعفر: "اشبهت خَلقي، وخُلقي، فحجل" ، وقال لزيد: "أنت أخونا، ومولانا، فحجل"[1].

فحجل: يقال حجل الطائر، يحجل حجلانا إذا نزءا في مشيته، كما يحجل البعير العقير على ثلاث.

وحكي الماوردي في "الحاوي" أن معاوية، وعمرو بن العاص مضيا إلى عبد الله بن جعفر لما استكثر من سماع الغناء، وانقطع إليه، واشتغل به، فمضيا إليه ليكلماه في ذلك، فلما دخلا عليه سكتت الجواري، فقال له معاوية: مُرْهن يرجعن إلى ما كن عليه، فرجعن فغنين، فطرب معاوية، وحرك رجليه على السرير، فقال له عمرو: أرى من جئت تلحاه، أحسن حالاً منك، فقال له معاوية: إليك يا عمرو: إن الكريم طروب.

وروى الحافظ محمد بن طاهر بإسناده إلى أبي العباس الفرغاني عن صالح بن أحمد بن حنبل ، أنه سمعه يقول: كنت أحب السماع، وكان أبي يكره ذلك، فواعدت ليلة ابن الخبازة، فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام، فأخذ يغني، فسمعت حسا فوق السطح، فصعدت فرأيت أبي فوق السطح، يسمع ما يغنى، وذيله تحت إبطه، وهو يتبختر فوق السطح كأنه يرقص.

وهذه نبذة ذكرتها في هذا الباب، ردعًا للمنكرين عن الإنكار، على ما قد يتفق في السماع من بعض الصالحين الصادقين الأخيار.

والذي اختاره المحققون أن من قام، وتحرك عن
فهو حسن، والتمكين أحسن، وإلا فإن كان الموافقة من
متعين.

(١) الحديث بطوله في صحيح البخاري إلى البراء بن عازب برقم ٩.

وعن القشيري أنه قال فيما صنفه في السماع: لا شك أن السكون أتم، ولكن الحركة أيضا تسلم عند الغلبة بمقدار قوة الوارد، وضعف المستمع، قال وأهل التحقيق يراعون حكم الوقت إن سُكنوا سكنوا، وإن حُركوا تَحركوا.

وتكلم المشايخ أيضا في أنه إذا قام بعض الواجدين، وأشار إلى غيره بالقيام مساعدة، واستجلابا للتواجد، وانتظارا لانتظام وقت يتفق فيه، طيبة القلوب، هل يوافق؟

قال القشيري: إن كان هناك شيخ محتشم، وأشار فأمره ممتثل، وكذلك جميع الفقراء إذا طلبوا من واحد مساعدتهم في الحركة، وتكلموا في أنه إذا قام شيخ، أو محتشم فهل يقوم الحاضرون لقيامه ؟.

قال القشيري: ليس له أصل، ولكن جرت العادة به، فصارت سنة بينهم، فإذا خالف واحد عُد منه ترك حرمه، وجريان العادة يراعى في شروط الأدب.

وتكلموا أيضا في أن من قام بوجد مزعج، ثم زالت الغلبة، وبقي ذوق المعنى باستدامة الحركة يدوم ذلك الذوق، فهل الأولى القعود أو استدامة الحركة ؟ .

قال القشيري: الأولى القعود، إلا إذا قصد موافقة الفقراء أصحاب المواجيد، دون المتوسمين في التواجد الذي يليق بحال أرباب الرتب السكون، مهما أمكن فإنه أتم، وأمكن - كما مر - .

ولذلك قال صاحب العوارف (لا يليق الرقص بالشيوخ، ومن يقتدي به لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم، ثم تقدم ذكره من الرخص في أمر السماع، فذلك ما لم يستكثر منه.

فأما من اتخذه، دَيْدَنه، وهِجيّراه، وقصر عليه أكثر أوقاته، فقد قال "الغزالي"فيه :هذا هو "السفيه" الذي تُرد شهادته، قال: ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج، فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، فما كل مباح، تباح كثيره؛ إذا كل الخبز مباح، كثار منه حرام .

وقد كرهه المشايخ للمريدين في مبادئ إرادتهم، قبل أن تتمرن نفوسهم بصدق المجاهدات، حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس، وأحوال القلب، لتنضبط حركاتهم بقانون العلم، وذلك بعد العلم بما لهم، وما عليهم.

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة، ومعهم قوال، فاستأذنوه أن يقول شيئا فأذن لهم، فأنشد القوال:

صغيرٌ هـواك عذبنـي .. فكيف به إذا احتنكا[١]

الله وأنت جمعت من قلبي هوىً .. قد كان مشتركـا

أما تـرثي لِمُكتئـب إذا .. ضحك الخليُّ بكـا

فطاب قلبه، وقام وتواجد، وسقط على وجهه، والدمُ يقطر من جبهته، ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم، فنظر إليه ذا النون وقال:اتق الذي يراك حين تقوم فجلس الرجل، وكان جلوسه لموضع صدقه، وعلمه بأنه غير كامل الحال غير صالح للقيام) [٢].

و ترى المنتمين إلى التصوف اليوم يقوم الواحد منهم من غير بصيرة، ولا علم، ولا حال في نفسه يعذر به عند الله تعالى، في قيامه، وحركته.

قال صاحب العوارف (وذلك إذا سمع إيقاعًا موزونًا يسمع، يؤدى ما يسمعه إلى طبع موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون، والإيقاع الموزون، وينسبل حجاب نفسه المنبسطة بانبساط طبع الموزون على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع، فيقوم يرقص رقصاً موزونًا ممزوجًا بتصنع محرم عند أهل الحق، ويحسب ذلك طيبة للقلب، وما أرى وجه القلب، وطيبه بالله تعالى، ولمثل هذا الرقص.....

---

(١) في الآداب الشرعية صغيرٌ هوال ج٢ / ٤٣٣.

وما تحت أيدينا من المراجع لم يعرفوا هذا القوال المصاحب لذي النون من هو .

(٢)عوارف المعارف صـ٢٣٣

قيل الرقص نقص لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد، والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية، بل بدلالة بساط النفس من المعانقة، وتقبيل اليد، والقدم، وغير ذلك من الحركات التي لا يعتمدها من المتصوفة، إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زي، وصورة، أو يكون القوال أمرد، تنجذب النفوس إلى النظر إليه، ويستلذ ذلك، وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى ؛ بسفارة الحركات، والرقص، وإظهار التواجد، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه، وأهل المواخير حينئذٍ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره، وحركاته، لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه، ويريه عبادة لمن لا يعلم ذلك....ز

قال : وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع موزون، ووزن من غير إظهار وجد، وحال، ووجه نيته في ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء في الحركة، فيتحرك بحركة موزونة، غير مُدع بها حالاً، ووجدًا، يجعل حركته في طرف الباطل؛ لأنها – وإن تكن محرمة في حكم الشرع– فهي غير محللة بحكم الحال، لما فيها من اللهو، فتصير حركاته، ورقصه من قبيل المباحات التي تجري عليه من الضحك، والمداعبة، وملاعبة الأهل، والأولاد، ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب، وربما صار عبادة بحسن النية، إذ نوى به استجمام النفس. كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال: إني لأستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عونًا لي على الحق.

قال صاحب العوارف: ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات ليستريح عمّال الله، وترتفق النفوس بعض مأربها من ترك العمل، وتستطيب أوطان المُهل، والمباح، قد يعد باطلاً بالنسبة إلى أرباب الأحوال....

وفي كلام سهل بن عبد الله : أن الصادق يكون جهله فريدًا لعلمه، وباطله فريدًا لحقه، ودنياه مزيدًا لآخرته. **ولهذا** المعنى حبب لرسول الله ﷺ النساء، ليكون ذلك حظ

نفسه الشريفة، الموهب لها حظوظها، الموفر عليها حقوقها، لموضع طهارتها)[١]، وقد نبهنا، على أن النكاح ورد فيه ما يدل على أنه عبادة، كيف لا وقد اشتمل على مصالح دينية ودنيوية ؟ !

وقال الرافعي: الرقص غير محرم، فإنه مجرد حركات على استقامة، قال: ومشهور أن النبي ﷺ وقف لعائشة يسترها، حتى تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون، ويزفنون، والزفن : هو "الرقص".

وقال الحليمي: الرقص الذي فيه تكسُر ، وتثنٍ يشبه أفعال المخنثين، حرام على النساء والرجال بالجملة، فالأحوط، والأليق محال أرباب التمكين، ومن هو في رتبة الاقتداء به، الاحتراز عن ذلك – كما تقدم ذكره – .

وقال صاحب العوارف: (قد ذكرنا وجه صحة السماع، وما يليق منه بأهل الصدق، وحيث كثرت الفتنة بطريقة، وزالت العصمة فيه، وتصدى للحرص عليه أقوام، قلت أعمالهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماع للسماع، وربما يتخذ للاجتماع طعام، تطلب النفوس الاجتماع لذلك، لا رغبة للقلوب في السماع، كما كان من الصالحين_ كأنه يشير بذلك إلى ما قيل، لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة، وقلبٌ حيٌ، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة، وقلبه حي بنور الموافقة، والمشاهدة._ قال: فيصير السماع معلولاً تركن إليه النفوس طلبًا للشهوات، واستجلاء لمواطن اللهو، والغفلات، وينقطع بذلك على المريد طلب المزيد، ويكون بطريقة تضييع الأوقات، وقلة الحظ من العبادات، وتكون الرغبة في الاجتماع لتناول الشهوة واسترواحاً لإولي الطرب واللهو والعشرة فلا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق، وكان يقال: لا يصلح السماع إلا لعارف مكين، ولا يصلح لمريد مبتدئ)[٢].

---

(١)عوارف المعارف صـ٢٣٣:صـ٢٣٥

(٢)عوارف المعارف صـ٢٣٩:صـ٢٤٠

وقال الجنيد: إذا رأيت المريد يطلب السماع، فاعلم أن فيه بقية من البطالة، وقيل: أن الجنيد ترك السماع، فقيل له: كيف تسمع؟ فقال: مع مَن قيل له أنت تسمع لنفسك، فقال ممن لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل، فلما فقدوا الإخوان تركوه.

وحكي أيضًا عند الجنيد أنه قال: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان، والمكان، والإخوان، على أن أهل الكمال في غنى عن استجلاب الوجد، والحال بُغناء المغني، ونشيد القوال.

قال صاحب العوارف (الوجدُ يشعر بسابقة فقد، فمن لم يفقد لم يجد، وإنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته، وبقاياه، فلو تمحض عبدًا تمحض حرًا، ومن تمحض حرًا أفلت من شرك الوجد، فشرك الوجد يصطاد البقايا، ووجود البقايا لاتخلف شيء من العطايا.

قال الحصري: ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه) [1]، ثم أنه ليس من طريق القوم التكلف في ذلك، والاستعداد له، والاعتناء بأمره، بل إن اتفق شيء من ذلك في وقت من غير تأهب له فلا بأس. عن الجنيد أنه قال: السماع فتنة لمن طلبه، وترويح لمن صادفه.

وقال صاحب العوارف (وإن أنصف المنصف، وتفكر في إجماع أهل الزمان، وقعود المغني بدفه، والمشبب بشبابته، وتصور في نفسه هل وقع مثل هذه الجلسة، والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ ، وهل استحضروا قوَّالاً وقعدوا مجتمعين لاستماعه؟!، فلا شك أنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ، والصحابة، ولو كان في ذلك فضيلة تطلب لما أهملوها، قال فمن يشير بأنه فضيلة تطلب، ويجتمع لها، لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ، والصحابة، والتابعين، ويستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك.

---

(١) عوارف المعارف صـ٢٤٤

قال: وكثيرًا ما يغلط الناس في هذا كلما احتج عليهم بالسلف الماضيين، احتجوا بالمتأخرين.

وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ، وهديهم أقرب إلى هدى رسول الله ﷺ.

قال: وكثيرًا من الفقراء يتسمحون عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة.

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال قلت: أن أناسًا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيًا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط،قال :ما لهذا؟ قالوا: أنه اذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر: أنّا لنخشى الله وما نسقط، إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما هكذا يصنع أصحاب رسول الله ﷺ.

وذكر عند "ابن سرين" الذين يصرعون إذا قرئ القرآن، قال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطًا رجليه، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

قال صاحب العوارف: وليس هذا القول إنكارًا منهم على الإطلاق؛ إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للمتصنع المتوهم في حق الأكثرين. قال : وقد يكون ذلك من البعض تصنعًا، ورياءًا، ويكون من البعض لقصور علم، ومخامرة جهل ممزوج بهوى. يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات، ويجهل أن ذلك يضر بدينه) [1]، وقد مر غير مرة أن من غلب الحال أعلى رتبة من الذي غلبه الحال، وهو معنى قول الجنيد: لا يضر

(١)عوارف المعارف صـ٢٤٢:صـ٢٤٣

نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد، ثم إن الوجد يظهر أثـره إما بالبكاء، أو الصياح، أو إقشعرار الجلد، أو الحركـة والاضـطراب، لأن حرارتـه إذا صعدت إلى الدماغ، تدفقت العين بالدمع، وقد يكون البكاء من الفرح كما قال القائل :

طفح السرورّ عليَّ حتى أنني ٠٠ من عظم ما قد سرني أبكاني[1].

وقد يتصور أثره إلى الروح، فتموج منه الروح موجًا، يكاد يضـيق عنـه نطـاق القالب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب.

وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال، وقد يحكيها بـدلائل هـوى النفس أرباب المحال.

وروى أن عمر ﷺ كان ربما مر بالآية في ورده، فتخنقه العبرة، ويسقط، ويلـزم البيت يومًا أو يومين حتى يعاد، ويحسب مريضًا.

ولا يخفى أن إظهار الوجد من غير وجد نازل أو ادعاء الحال مـن غيـر حـال حاصل، عين النفاق عند القوم. قيل كان"النصرباذي" كثير الولوع في السماع، فعوتب فـي ذلك، فقال: هو خير من أن نقعد ونغتاب الناس، فقال له أبو عمرو بن نجيد، وغيره مـن إخوانه: هيهات يا أبا القاسم، إن زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس، وذلك أن زلة في السماع اشارة إلى الله تعالى وترويح الحال بصريح المحال.

قال صاحب العوارف (وفي ذلك ذنوب متعددة، منها أن يكذب على الله تعالى أنه وهب له أشياء وما وهب له، والكذب على الله تعالى من أقبح الزلات، ومنهـا أنـه يغـر بعض الحاضرين فيحسن به الظن، والغرور خيانة. قال ﷺ : "من غشنا فليس منا " [2].

---

(١) البيت لصفي الدين الحليمي يصف الربيع ومطلع القصيدة :

خلع الربيع على غاصـون البـان ٠٠ حللاً فواضلها على الكثـبان

ونمت بفروع الدوح حتى صافحت ٠٠ كفل الكثيب ذوائب الأغصان

جوهر الأدب، أحمد الهاشمي.

ومنها أنه إذا كان مبطلاً ويرى بعين الصلاح سوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه، فتفسد عقيدته في غيره فيا من يظن فيه الخير من أمثاله، فيكون منتسبًا إلى إفساد العقيدة في أهل الصلاح، ويدخل أيضًا ذلك الضرر على الرجل الحسن الظن من فساد عقيدته فيقطع عنه مدد الصالحين، وينبعث من هذا آفات كثيرة يقف عليها من يبحث عنها، ومنها أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته في قيامه، وقعوده، فيكون مكلفًا للناس بباطله، وقد يكون في الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل، ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مداريًا، ويكثر شرح الذنوب في ذلك، فليتق الله ربه، ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته كحركة المرتعش الذي لا يجد سبيلاً إلى الامساك، وكالعاطس الذي لا يقدر أن يرد العطسة، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يتنفس، يدعوه إلى التنفس داعية الطبع قهرًا.

قال السري رحمه الله تعالى: شرط الواجد في زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر فيه بوجع: وقد يقع هذا في حق بعض الواجدين نادرًا، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار. وهذا الضبط من رعاية الحركات، ورد الزعقات في تمزيق الثياب آكد، فإن ذلك يكون إتلاف المال، وإنفاق المحال) (٢).

روى أن موسى ﷺ قص في بني إسرائيل فمزق واحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى إليه، قل له: مزق لي قلبك، ولا تمزق ثيابك، وهكذا رمي الخرقة إلى الحادي لا ينبغي أن يفعله إلا إذا حضرته نية يجتنبها التكليف، والمراءة. قال: "وإذا أحسنت النيه فلا بأس، بإلقاء الخرقة إلى الحادي، لما روي أن كعب بن زهير دخل على رسول الله ﷺ المسجد، وأنشد قصيدته التي أولها.

---

(١) مسلم، الصحيح، إلى أبي هريرة باب ٤٣ – رقم ١٦٤ – (١٠١) ط/ دار إحياء الكتب العربية.

(٢)عوارف المعارف صـ٢٥٠

بانتْ سُعادُ وقلبي اليوم متبول[١] .... حتى انتهى إلى قوله فيها:

أن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلولٌ

فقال له رسول الله ﷺ : من أنت ؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله أن كعب بن زهير، فرمى إليه رسول الله ﷺ بردةً كانت عليه، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب أن بعنا بردة رسول الله ﷺ بعشرة آلاف ، فوجه إليه ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا، فلما مات كعب، بعث معاوية إلى أولاده عشرين ألفًا، وأخذ البردة، وكانت باقية عند الخلفاء إلى عهد "الناصر لدين الله".

قال صاحب العوارف: (وللمتصوفة آداب يتعاهدونها، ورعايتها من حسن الأدب في الصحبة، والمعاشرة، وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن كل شيء استحسنوه، وتواطؤا عليه ، ولا ينكره الشرع، لا وجه للإنكار فيه، فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السماع، ووقعت منه خرقة، أو نازلة وجدٌ ورمى عمامته إلى الحادي، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس، إذا كان ذلك من متقدم أو شيخ، وإن كان ذلك من الشبان في حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان في ذلك،وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فترك الموافقة للشبان فإذا سكتوا عن السماع، ورجع الواجد إلى خرقته، وافقه الحاضرون برفع العمائم، ثم ردها على الرؤوس في الحال للموافقة.

قال: والخرقة إذا رميت إلى الحادي فهي للحادي إذا قصد أعطاه إياها، وإن لم يقصد إعطائه للحادي، فقد قال بعضهم: هي للحادي لأن المحرك هو، ومنه صدر الموجب لرمي الخرقة، وقال بعضهم: هي للجميع، والحادي واحد منهم، لأن المحرك قول الحادي مع بركة الجمع، فإن بركة الجمع في إحداث الوجد لا تتقاصر عن قول القائل، فيكون الحادي واحد منهم في ذلك.

---

(١) القصيدة مشهورة أنشدها صاحبها بين يدي رسول الله يستعطفه.

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر، من وقف في مكان كذا، فله كذا، ومن قتل فله كذا، ومن أسر فله كذا، فتسارع الشباب، وأقام الشيوخ، والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين، طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم، فقال الشيوخ كنا ظهرًا لكم ورداء، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى: "يسئلونك عن الأنفال ؟ قل: الأنفال لله والرسول"[1]، فقسم النبي ﷺ بينهم بالسوية.

وقيل: إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن من القوم، فما كان له قيمة يؤثر به، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم.

وقيل: إذا كان القوال أجيرًا، فليس له منها شيء، وإن كان متبرعًا يؤثر بذلك.

وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم، فإذا كان هناك شيخ يهاب، يمتثل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال في ذلك، وللشيخ اجتهاده، يفعل ما يرى، ولا اعتراض لأحد عليه، وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين، ورضي القوال، والقوم بذلك، وعاد كل واحد إلى خرقته فلا بأس بذلك، وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنيته له في ذلك يؤثر لخرقته الحادي، وأما تمزيق الخرقة المخروجة التي مزقها واحد صادق عن غلبته سلبت اختياره، كغلبة النفس من يتعهد إمساكه، فنيتهم في تمزيقها، وتفريقها التبرك بالخرقة، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق، وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد، فصارت الخرقة متأثرة بتأثر رباني، من حقها أن تفدى بالنفوس، وتترك على الرؤوس إكرامًا، وإعزازًا.

تفوح أرواح نجد من ثيابهم يوم القدوم لقرب العهد بالدار[2].

---

(١) الأنفال : آية ١ جزء آية.

(٢) في مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري عند القدوم لقرب العهد بالدار ج٥ / ٢٢٢

وفي داوين الشعر العربي عدم الحضور نسب للشريف الرضي من شعراء العصر العباسي، والقصيدة مطلعها :

يا قلب ما أنت من نجد وساكنيه .. خلعت نجد وراء المدلج الساري

كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث، فيتبرك به، ويقول حديث عهد بربه، فحكم الخرقة المجروحة، أن تفرق على الحاضرين، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ إن خصص بشيء منها بعض الفقراء، فله ذلك، وإن خرقها خرقا فله ذلك، ولا يقال هذا تفريط، وسرف، فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة.

وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قال: أُهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير، فأرسل بها إليَّ، فخرجت فيها، فقال لي: "ما كنت لأكره لنفسي شيئًا ، أرضاه لك، فشققها بين النساء خُمرًا " (١).

و في رواية:أتيته فقلت:ماأصنع بها؟ألبسها؟ قال:لا، ولكن أجعلها خُمراً بين الفواطم،أراد فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت حمزة،وفي هذه الرواية كانت حلة مكفوفة بحرير، وهذا وجه في السنة بتمزيق الثوب وجعله خرقاً.

حكي أن الفقهاء والصوفية "بنيسابور" اجتمعوا في دعوة، فوقعت الخرقة، وكان شيخ الفقهاء "أبو محمد الجويني" وشيخ الصوفية "أبو القاسم القشيري" حاضرين- فقسمت الخرقة على عادتهم، فالتفت الشيخ "أبو محمد" إلى بعض الفقهاء وقال: سرًا: هذا سرف وإضاعة للمال، فسمع أبو القاسم القشيري ذلك، ولم يقل شيئًا، حتى فرغت القسمة، ثم استدعى الخادم، وقال انظر في الجميع من معه سجادة خرق، ائتني بها، فجاء بسجادة ثم أحضر رجل من أهل الخبرة فقال هذه السجادة بكم تشترى؟ فقال: بدينار، وقال ولو كانت قطعة واحدة، كم كانت تساوي؟ قال نصف دينار، فالتفت إلى الشيخ أبي محمد وقال هذا لا يسمى إضاعة المال، والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين، من كان من الجنس أو غير الجنس، إذا كان حسن الظن بالقوم معتقد للتبرك بالخرقة) (٢)، إذا القيمة لكل من شهد الواقعة،(وذهب بعضهم إلى أن المخروج من الخرقة تقسم على الجميع، وما كان من ذلك

---

(١) متفق عليه ، البخاري رقم ٥٨٤٠ ، مسلم برقم ٢٧٠١.

(٢)عوارف المعارف صـ٢٥١ :صـ٢٥٣

صحيحا، يعطي القوال، واستدل بما روى عن أبي قتادة قال لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين، وقد فرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ : "من قتل قتيلا فله سلبه"(١)

وهذا له وجه في الخرقة الصحيحة، فحكمها إسهام الحاضرين، والقسمة لهم، ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قبل ذلك، قسم له، قال الله تعالى: "وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه " (٢).

وروى أن أبو موسى الأشعري قال: قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث، فاسهم لنا، ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا، ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم في السماع كمتزهد، لا ذوق له، فينكر ما لا ينكر، أو صاحب دنيا يُحوج إلى المداراة، والتكلف، أو متكلف للوجد يشوش الوقف على الحاضرين بتواجده) (٣).

قال بعضهم: الناسُ في السماعُ أصناف :

منهم من يسمع بالطبع، ويشترك فيه الخاص والعام، فإن الجبلة البشرية استلذاذ الصوت الطيب. .

ومنهم من يسمع بالحال، وهو الذي يتأمل ما يرد عليه مما يناسب حاله من ذكر عتاب، أو خطاب أو وصل أو هجر أو تأسف على ما فات، أو تعطش إلى ما هو آت، أو نقص لعهد أو تصديق لوعد، أو ذكر قلق أو اشتياق أو خوف، أو ألم فراق، وما جرى مجراه.

ومنهم من يسمع بالحق، وهو الذي سماعه لله، وبالله، وإلى الله، فيسمع من حيث صفاء التوحيد بحق، لا بحظ.

والسماع بالحال فيه شيء من الحظوظ البشرية.

(١) رواه البخاري عن أبي قتادة الأنصاري من حديث طويل ٣١٤٢.

(٢) النساء ٨ جزء آية .

(٣)عوارف المعارف صـ٢٥٣.

قال أبو نصر السراج، في كتابه المسمى "باللمع في علم التصوف" : سمعت أبا عمرو إسماعيل بن نجيد جد أحمد بن يوسف السلمي قال: سمعت أبا عثمان الرازي يقول: السماع على ثلاثة أوجه:

فوجه منها: للمريد، والمبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ونخشى عليهم في ذلك الفتنة، والمرأة.

والوجه الثاني: للصادقين، يطلبون به الزيادة في أحوالهم، ويسمعون من ذلك ما يوافق أحوالهم، وأوقاتهم.

والوجه الثالث: لأهل الاستقامة من العارفين، فهم لا يعترضون، ولا يتأبون على الله فيما يرد على قلوبهم في حين السماع من الحركة، والسكون، أو كما قال.

قال "أبو نصر" : ولا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله، وصفاته، ليضيف إلى الله ما هو أولى به، ولا يكون قلبه ملوثًا بحب الدنيا، وحب المحمدة والثناء، ولا يكون في قلبه طمع في الناس إلى المخلوقين، ويكون مراعيًا لقلبه، حافظًا لحدوده، متعاهدًا لوقته، فإذا كان كذلك يسمع ما يكون داخلاً في صفة التائبين، والطالبين، والخائفين، والخاشعين، ويسمع ما يحثه على المعاملة، والمجاهدة، ولا يسمع للاستطابة، والتلذذ، ويسمع على الجملة، ولا يتكلف، لكيلا يصير عادة، فتشغله من عبادته، ورعاية قلبه، فإن لم يكن كذلك، وجب عليه ترك ذلك.

وللقوم في السماع فنون من الكلام يطول ذكرها، فلنقتصر على هذا القدر منه، ولنشرع في بقية كلام المصنف.

ص: قوله: "السماع: استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال".

ش : يقال: "جم الفرس جمًا وجمامًا" أي: ذهب إعياؤه، و"أجم" على ما لم يسم فاعله، إذا ترك ركوبه ليستريح، ويقال: "أجم نفسك يومًا أو يومين" أي: أرحها، واستجم الفرس" أي: جم، ويقال: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو، لأقوى به على الحق، وكان المصنف أشار بما ذكره إلى أن السماع الذي يفسح فيه ما يكون لأحد هذه الأمور الثلاثة،

وما عدا ذلك مما يقصد به اللهو، والطرب، وغير ذلك، فلا سبيل إلى الترخيص فيه، فأحد الأمور المذكورة، طلب الراحة به من تعب الوقت، وذلك لأصحاب المعاملات الظاهرة، المجتهدين في حفظ الأوقات، والمواظبين على الرياضيات، الذين يروضون أنفسهم بترك الشهوات، ويتعبونها بمشاق العبادات، فإذا كلت نفوسهم، وأعيت، أراحوها بالسماع على قصد الاستعانة، والتقوي به على ملازمة الطاعات، كما تقدم ذكره في كلام ابن حزم، وغيره.

وقد جاء في الحديث: "إن لنفسك عليك حقًا" [(١)].

كيف وتخشى عليها الوقوف، بل التلف والاستئصال، بالإفراط في كثرة الأعمال، والنبي ﷺ قد قال: "إن المنبت لا أرض قطع، ولا ظهر أبقى" [(٢)].

والأمر الثاني من الأمور المذكورة لأصحاب الأحوال الباطنة، وأعمال القلوب، كالخوف، والرجاء، والصدق، والمعرفة، والتوكل، والمحبة والرضا، والصبر، والمراقبة، والفكرة، والشوق، والوجد، ونحو ذلك، فإن صاحب هذه الأحوال يتنفس فيها بالسماع، وينشرح بما يرد عليه حينئذٍ مما يناسب حاله - على ما مر - ويزداد به نشاطه للاستمرار على ما هو عليه، والازدياد منه فينتفع به من هذا الوجه.

والأمر الثالث من تلك الأمور لبعض العارفين إذا اعتراهم شيء من الشواغل عما هو بصدده من استغراق أسرارهم، واشتغالها بالله تعالى، فأنهم في الأعم الأغلب من

---

(١) رواه أبو داود عن عائشة أم المؤمنين (١٣٦٩).

(٢) هذا الحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٠/ ١٨) والحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ٢١٦) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢١٧): رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي عن جابر مرفوعًا بلفظي "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرض قطع ولا ظهرًا أبقى، واختلف في إرساله ووصله. ورجح البخاري في تاريخه الإرسال، وذكره في التاريخ الصغير (١/ ٢٣٠) ورجح مرسل بن المنكدر وقال عن حديث أبي عقيل: لا يصح. وكذا في التاريخ الكبير (١/ ١٠٣).

أحوالهم، لا التفات لهم إلى السماع، ولا انتفاع به لبعدهم عن الفقد المحوج إلى استجلاب الوجد؛ إذ الغالب من حالهم دوام اتصالهم.

عن "الحصري" أنه قال: إيش أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يسمع منه، ينبغي أن يكون سماعك سماعًا متصلاً، غير منقطع، فهو في غنى عن السماع في حال الشهود، والاطلاع، لكنه قد يعتري بعضهم اشتغال عن ذلك بشيء من الشواغل البشرية، فحينئذ يحتاجون إلى استحضار الأسرار، وضبطها عن الجماح، والنفار، وذلك إما بالسماع أو غيره؛ مما يستروح إليه الطباع، وله فيه لبانات، وأوطار، إلا أنه وقع لهم على السماع الاختيار – ولما أشار إليه المصنف رحمة الله بقوله.

ص: قوله: "وإنما اختير على غيره مما تستروح إليه الطباع، لبعد النفوس عن التشبث به، والسكون إليه، فإنه من القضاء يبدو، وإلى القضاء يعود".

ش : أي: لكونه أمرًا غير ثابت، فلا يستمر أثره في النفوس، ولا يؤثر في نفوس المذكورين أثرًا غير صالح، ولا تشتغل الذمة بسببه بشيء من مظالم العباد، بخلاف نحو الغيبة التي يستروح إليها أكثر الزاهدين الجامدين الطباع مع شدة إنكارهم على القائلين بالسماع.

ص: قوله: "وأرباب الكشوف والمشاهدات استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم بتنزه أسرارهم في ميادين الكشوف".

ش : أي: استغنوا عن السماع، وغيره من الأشياء التي يستروح إليها الطباع، ولذلك أنث الضمير في قوله "عنها" ، ثم إن استغناءهم عنها إنما هو في حال كشوفهم، ومشاهداتهم، وذلك بالأسباب الحاملة لهم عن الحاجة إليها، وبين تلك الأسباب بقوله من "تنزه أسرارهم" فإن التذاذ أسرارهم بما يشاهدونه في فضاء الكشوف يغنيهم؛ ويحملهم عن الحاجة إلى السماع، وما يجري مجراه.

وأشار بلفظ "الميادين" إلى اتساع طور المشاهدة، ولما كان "تنزه أسرارهم" أنواعًا شتى حسن أن يُفسر به الأسباب.

ص: قوله: سمعت فارسًا يقول: "كنت عند قوطة الموصلي، وكان لزم سارية في جامع بغداد أربعين سنة ما قلنا له ها هنا قوّال طيب، ندعوه لك ؟ قال: أنا أجلّ من أن يستقطعني شخص، أو ينفذ فيّ قولٌ، أنا ردمٌ كلُّه " .

ش :أي: كلّ ردم فهو من باب أكلتُ شاة ، كل شاة، إذا قصد به المبالغة، والردم السد، وقوله: "يستقطعني" أي: يطلب قطعي عما أنا فيه، وفي بعض النسخ "يستعطفني" وهو بمعنى: العطف بمعنى: التثني، والإمالة.

يقال: منه عطفت العود أي: أملته، والمعنى: قريب من الأول، يريد أن انشغاله بالحق تعالى قد استولى عليه، واستوفاه، بحيث لم يبق فيه مساغ لغيره؛ والسبب في عدم اشتغال العارفين بالسماع أن الروح قد تستلذ النغمات، لأن النفس تلتذ عندها وهي عاشقة للروح لأنوثتها، وذكورة الروح، والتعاشق من الذكر والأنثى موافق بالطبع، فإذا التذت النفس بما حصل بينها وبين الروح مُناغاة بالإيماء، والرمز الخفي، كما هو شأن المتعاشقين، فتستطيب الروح النغمات بهذا السبب، لأنها كالمراسلة بين المتعاشقين، وكالمكالمة بينما، بالإشارة والرمز الخفيين، كما قال القائل:

تكلم منا في الوجوه عيوننا .. فنحن سكوت والهوى يتكلم[١].

فإذا استلذ الروح وجدت النفس المعلولة بالهوى، ووجد القلب المعلول بالإرادة، وتحرك ما فيها لوجود العارض في الروح لما قيل:

وللأرض من كأس الكرام نصيب[٢].

---

(١) لم أعثر على قائله.

(٢) هذا الشطر أورده الإمام الغزالي في الإحياء.

شربنا شرابًا طيّبًا عند طيب .. كذلك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله .. وللأرض من كأس الكرام نصيب

وأدرج هذا الشطر عبد الغني النابلسي وهو معاصر المتوفي عام ١١٤٣هـ - ١٧٣٠هـ.

والبالغ مبلغ الرجال والمتجوهري المتجرد من أعراض الأحوال خلع نعلي القلب، والنفس بالوادي المقدس، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، استقر، وغرس، وأخرق بنور العيان إجرام الألحان، ولم تصدف روحه إلى مناغاة عاشقه؛ لشغله بمطالعة أنوار محبوبه، والهايم المشتاق لا يسعه كشف ظلامة العشاق، ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأسًا، وإذا كان الألحان لا يلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها، وخفي مناغاتها، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعاني وهو أكثف ؟ ! .

ومن لم يكن فيه أن يحمل لطيف الإشارات، كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات؟!.

وأيضًا فالوجد وارد يرد من الحق سبحانه؛ ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله، ومن صار في محل القرب متحققًا به لا تحركه ما من عند الله، والوارد من عند الله يشعر ببعد، والقريب واجد، فماذا يصنع بالوارد؟ نعم، إن دخل عليه فتور، أو عاقه قصور، يتألف من تفاريق الابتلاء بذلك، بشيء من السماع لعوده إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق؟ إذا زل وقع على القلب، ومن هو مع القلب ؟ إذا زل وقع على النفس.

عن بعض المشايخ أنه وجد في السماع، فقيل له: أين حالك من هذا ؟ فقال: دخل عليَّ داخل، أوردني هذا المورد.

وقال بعضهم: حالي قبل الصلاة كحالي في الصلاة، إشارة إلى استمرار حال الشهود، فهكذا يكون حاله في السماع كحاله قبله، ولا يؤثر فيه السماع شيئًا.

حكي أن جماعة من الصوفية كانوا مجتمعين، ومعهم من يغني لهم، وهم يتواجدون فأشرف عليهم "ممشاز الدينوري" فسكتوا، فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي، ولا شفى بعض ما بي.

ص: قوله: "فالسماع إذا قَرَعَ الأسماع أثار كوامن أسرارها، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد، ومن بين متمكن بقوة الحال".

ش : الضمير في قوله: "أسرارها" للأسماع، وفيه حذف؛ إذ المعنى أسرار أصحاب الأسماع، وأشار بإثارة الأسماع لكوامن الأسرار إلى ما نقل عن "أبي سليمان الداراني"

وهو أنه قال: السماع لا يدخل في القلب شيئا، إنما يتحرك في القلب ما فيه، وفيه إشارة أيضا إلى مَن ليس له مع الله سر كَامن، لا يصلح له السماع.

وقوله: "لعجز الصفة" أي: لضعف حال السامع، فإن الاضطراب عند السماع دليل على ضعف السامع، وكونه مغلوبا غير غالب – كما مر غير مرة – .

عن بعض أصحاب سهل أنه قال: صحبت "سهلاً" ستين سنة، ما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن؛ فلما كان في آخر عمره، قرئ عنده "فاليوم لا يؤخذ منكم فدية" (١)، فارتعد وكاد يسقط، فسألته عن ذلك، فقال: نعم، لحقني ضعف. وسمع مرة "الملك يومئذ الحق للرحمن"(٢)، فاضطرب، فسأله "ابن سالم"، وكان صاحبه، فقال: قد ضعفت، فقيل له: أن كان هذا من الضعف، فما القوة ؟ ! فقال: القوة أن لا يرد عليه واردا لا يبتلعه بقوة حاله، فلا يغيره الوارد.

ص: قوله: قال أبو محمد رويم : "إن القوم سمعوا الذكر الأول: حين خاطبهم بقوله: "ألستُ بربكم؟ "(٣) ، فكمُن ذلك في أسرارهم كما كمُن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا الذكر ظهرت كوامن أسرارهم فانزعجوا ، كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك فصدقوا " .

ش : هذا بيان ما ذكره من كوامن الأسرار، وهو مما ذكر في سبب ما يجده السالك عند السماع من الاهتزاز، والانزعاج، والأذكار.

ومسمى قوله: "ألست بربكم" : الذكر الأول، لأنه أول خطاب خاطب الله تعالى به ذرية آدم عليه السلام.

وقد تقدم الكلام عليه في أوائل الكتاب.

(١) الحديد ١٥ جزء آية.

(٢) الفرقان ٢٦ جزء آية.

(٣) الأعراف ١٧٢ جزء آية.

وقوله تعالى: "ألست بربكم" : تقرير للربوبية، أي: أنا ربكم.

كما أن قوله تعالى : "ألم نشرح لك صدرك"[١] معناه: شرحنا لك صدرك.

وقول الشاعر: ألستم خير من ركب المطايا[٢] معناه: أنتم خير من ركب المطايا ... إلى غير ذلك من الأمثلة.

وقوله: "فكمُن ذلك في أسرارهم" أي: أخفى ذوق ذلك الخطاب، ولذته، وحلاوته في أسرار السعداء من المخاطبين به، فإن ألذ الخطاب، وأحلاه خطاب الحبيب لمن يحبه، ويهواه.

وقوله: "كما كون في عقولهم" أي: أوجده، وركزه فيها، وفطرها عليه، فإن وجود الصانع تعالى، وما يستحقه من صفات الكمال مركوز في العقول، إلا أنها قد يعتريها الذهول.

قال الله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله"[٣].

وقال ﷺ : "كل مولود يولد على الفطرة"[٤].

قوله: "فلما سمعوا الذكر" فيه إشارة إلى أن السماع الذي فيه ذكر الله تعالى، وهو السماع المحمود، وهو الذي يظهر ذلك الذوق الكامن في الباطن، وحينئذٍ قد تنزعج له القلوب، وتقشعر الجلود، عند ضعف الصفة، وقوة الحال الوارد، وقد تطمئن القلوب وتلين الجلود إلى قوة الصدفة وتمكن صاحبها بحيث يغلب الوارد ولا يغلبه الوارد _كما مر_.

---

(١) الشرح ١.

(٢) هذا الشطر لبيت رواه جرير بن عطية في قصيدة بعنوان : "أتصحو أم فؤادك غير صاح". وشطرها الثاني "وأندى العالمين بطون راح"

(٣) لقمان ٢٥

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة ١٣٨٥.

سئل الجنيد: ما بال الإنسان يكون هاديًا، فإذا استمع السماع اضطرب ؟ فقال: أن الله تعالى لما خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله: "ألست بربكم" استغرقت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك، وكذلك تظهر كوامن العقول من الإقرار بوجود الصانع، ووحدانيته، واتصافه بما يليق بجلاله من صفات، كماله بحسب ذاته، وأفعاله عند إخبار الحق تعالى في محكم كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ لأرباب الفطر الصحيحة، فيصدقون به على وفق ما تقتضيه العقول الصريحة.

ص: قوله: سمعت أبا القاسم البغداديّ يقول: "السماع على ضربين:

فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه غيرةً، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز، وحضور القلب.

وطائفة سمعت النغمة، وهي: قوت الروح، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه، وأعرض عن تدبير الجسم، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة".

ش : هذا قريب مما ذكره "القشيري" : أن السماع على قسمين :-

فسماع بشرط العلم والصحو

قال: فمن شرط صاحبه معرفة الأسماء، والصفات، يعني: ما يجوز على الله تعالى، ويجب له، ويستحيل، لئلا يحمل الذي يسمعه على ما لا يليق بجلاله تعالى، فيقع في الكفر، أو البدعة والعياذ بالله.

وسماع بشرط الحال :

قال: فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية، والتنقي من آثار الحظوظ، بظهور أحكام الحقيقة.

وقول أبو القاسم البغدادي : "فاستخرجت غيره" يجوز أن يريد به ما كان من جنس ما يحكي عن "أبي حكمان الدمشقي" : أنه سمع من ينادي سعتر بري، فسقط مغشيًا عليه، فلما أفاق، سئل فقال: حسبته يقول: اسعتر برى.

وأما كون النغمات للروح بمنزلة الأقوات، فقد قال صاحب العوارف(في وجه استلذاذ الروح بها، أن العالم الروحاني مجمع الحسن والجمال، ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قولاً، وفعلاً، ووجود التناسب في الهياكل، والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة، والألحان المتناسبة تأثر فيه؛ لوجود الجنسية)[1]، وكان الإشارة في قوله: "أشرف على مقامه إلى عالم الأرواح" : فإنها خلقت قبل الأشباح وبينها تعارف، وتناكر على ما صح في الحديث، فإذا خفت، ولطفت في السماع أشرفت على عالمها الأصلي، ومقامها الحقيقي، وانجذبت إليه معرضة عن عالم الجسم، وتدبيره ومنعها الجسم من الوصول إليه قبل انتهاء الأصل المكتوب عليه، فحصل من ذلك اضطراب وحركة – وقد مر بي من كلام بعضهم – أنّ سبب الدوران الذي يقع لبعض الواجدين في السماع وهو أن الجزء اللطيف منهم، وهو الروح، يطلب الصعود، والكثيف الذي هو الجسم، طبعه الهبوط، فيتجاذبان فيحدث بذلك الحركة الدورية المتوسطة بين الحركة الصاعدة، والهابطة.

وذكر أصحاب العلوم الطبيعية شيئًا من ذلك في سبب تحرك الذهب في البوتقة بالحركة الدورية.

ص: قوله: قال أبو عبد الله النباجي: "السماع: ما أثار فكرةً، واكتسب عبرةً، وما سواه فتنة " .

ش :يجوز أن يريد بالفكرة ما يعم سماع المريدين، وهو ما نقل عن "أبي بكر الكتاني" رغبة، ورهبة، وسماع الأولياء، وهو رؤية الآلاء، والنعماء، وغير ذلك.

"وبالعبرة" ما فيه عبور عن الشيء إلى غيره، كما ذكرنا من فهم "ابن حلمان" من قول القائل: سعتر برئ اسعتر بري، وما جرى مجراه.

والمراد بما سوى ذلك ما كان بمقتضى الطبع، والشهوة، وعلى سبيل التلهي، والبطالة.

---

(١)عوارف المعارف صـ٢٤٥.

ص: قوله: قال الجنيد: "الرحمة في تنزل على الفقير في ثلاثة مواضع :

عند الأكل فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة.

وعند الكلام فإنه لا يتكلم إلا للضرورة.

وعند السماع فإنه لا يسمع إلا عند الوجد".

ش : الذي نقله صاحب العوارف عن الجنيد في هذا المعنى أنه قال: (تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين، وأحوال النبيين، وعند السماع لأنهم يسمعون ويشهدون حقًا.

وسئل "رويم" عن وجد الصوفية عند السماع، فقال: يتنبهون للمعاني التي تغرب عن غيرهم، فتشير إليهم إليَّ إليَّ فيتنغمون بذلك من الفرح، وقد يقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاءً ، فمنهم من يخرق ثيابه، ومنهم من يبكي، ومنهم من يصيح)(١)

وعن "محمد بن سليمان" : أن المستمع بين استتار، وتجل.

فالاستتار يورث التلهب والتجلي يورث المزيد.

فالاستتار: يتولد منه حركات المريدين، وهو محل العجز والضعف.

والتجلي: يتولد منه السكون للواصلين، وهو محل الاستقامة والتمكين، وكذلك محل الحضرة ليس فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة.

قال "أبو نصر السراج" في كتاب "اللمع من صفات أهل الكمال" : "أن لا يكون فيهم فضل لطارق يطرقهم، ولا لوارد يرد عليهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

وللقوم في السماع كلام كثير، يطول الكتاب بذكره، وفي هذا القدر كفاية.

---

(١) عوارف المعارف صـ٢٣٠.

وقد ختم المصنف كتابه بقوله:و في ما ذكرنا كفاية لمن تأمل، وتدبر، وتفكر، والحمد لله على ما وفق، ونستغفره من زلة أو تقصير وقع فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأنا أقول مثل ما قال والحمد لله الكبير المتعال، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه خير صحب، وخير آل وسلم تسليمًا كثيرًا على كل حال.

هذا آخر الشرح المسمى بحسن التصرف في شرح التعرف.

* * *

فهرست الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٢٧١٧٦ / ٢٠١٦